لم أعد إنجليزياً يا أبي

أحمد الزمام

• لم أعد إنجليزياً يا أبي
• أحمد الزمام
• دار كلمات للنشر والتوزيع
• الطبعة الأولى 2019
دولة الكويت / محافظة العاصمة
تلفون: 0096599119934
تويتر: @Dar_kalemat
إنستجرام: Dar_kalemat
بريد إلكتروني
Dar_Kalemat@hotmail.com
info@kalemat.com
الموقع الإلكتروني:
www. kalemat.com

للتواصل مع المؤلف:
تويتر: @ahmadalzmam
إنستجرام: @ahmadalzmam
بريد إلكتروني
ahmadalzmam@hotmail.com

• جميع الحقوق محفوظة للناشر: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

* All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without the prior written permission of the publisher.

ردمك: ISBN: 978-9921-730-26-5

لم أعد إنجليزياً يا أبي

أحمد الزمام

رواية

kalemat

الإهداء

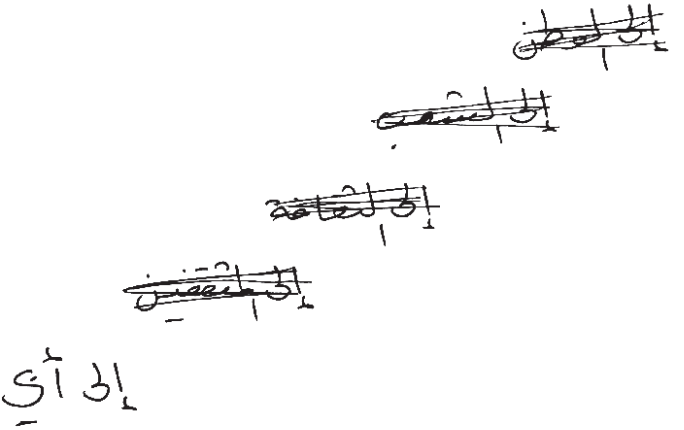

الفصل الأول

2000

1

يقف أمام المرآة الدائرية وقفة جامدة، محدقاً في وجهه الذابل، قبل البدء بحلاقة ذقنه الذي بات يزعجه وجود اللون الأبيض فيه سابقاً لأوانه.

«لم أعد إنجليزياً يا أبي» قال وهو يبتسم. صمت طويلاً يتأمل وجهه في المرآة وكأنه يتعرّف على قطعة أثرية يخفي تفاصيلها الغبار. ضحك بصوت عال، وباستمرار ضحكته، سمع ضحكات مرزوقة، ثم قالت من خلف الباب: «ضحكتك تُضحكني!» صمت خالد منتبهاً لحاله، وعاد يتأمل في وجهه متعمقاً في تفاصيله خاطفاً النظر إلى ساعته الكاسيو،الحادية عشرة قبل منتصف الليل.

2

بعد ساعة من الآن سأبلغ الثالثة والثلاثين من عمري، وها هو وجهي بات يكبرني بسنوات؛ الشيب في كل مكان يتسلل بطريقة فوضوية ولا يخشى العقوبة بموس الحلاقة،هالات سوداء تطوّق عينيّ،وبثور منتشرة لا أدري كيف تجرأت على الظهور، وبقع غريبة لم أرها في وجه أحد من قبل. هكذا فجأة تزحف الكهولة إلى ملامحي مع اقتراب يوم ميلادي.

كان أبي يقول لأصدقائه بكل فخر وهو يشير إليّ بسبابته: «لدي ابن كأنه إنجليزي؛ ذكي وجميل، أبيض يشرب الحمرة». ثم يرفع فنجان قهوته عالياً وبصوت مرتفع مليء بالاعتزاز: «عيناه بسعة هذا». كانوا ينظرون إليّ وكأني لست من عشيرتهم، ويتهامسون فيما بينهم لدقائق، شعرت حينها بأنني منحوتة أسطورية يقوم الغرباء بوصفها وسرد تاريخها الحافل بالغرائب، أما أبي ففي أعماق الفرح تتلألأ عيناه.

كلما هممت بالحديث أمام كبار السن في المجلس، ينظر إليّ أبي متمتماً بالمعوذات، نافثاً بهدوء حذر أن يراه أحد من الجالسين. كان يفسح لي المكان للجلوس، وهو المعتاد على يمينه، فإن كان أحد أصدقائه يحتله، استأذنه أن يتزحزح بنفسه قليلاً ليسع طفله المبجّل. وفور جلوسي، يُلبسني أبي بشته الذي تتدلى أطرافه من على جنبيّ معلناً لأصدقائه تخليه عن سدة رئاسة المجلس لأتولاها بثقة.

كان أغلب حديثي عن التاريخ حين أتمتع بالمزاج الجيد، أتحدث بطلاقة وتتسع عيون من يسمعني ويفلت منهم تركيزهم لكثافة المعلومات التي أقذفها بتلقائية دون تحضير، أو إفساح لحظة صمت بين الجُمل أو انقطاع لكحة عجوز. التاريخ أحياناً يُدخل بعض كبار السن في نقاش محتدم معي، يرفعون في وجهي العكازات المعقوفة، وأكون معهم بين مقاطع ومعارض ومصحح ومغالط، وقليل من كان يؤيّد ما أقول، ولا شك بأن أبي كان درعي المنيع طوال حديثي منشغلاً بالتمتمة أو يومئ لأحد منهم بعصاه ليصمت ولأكمل

دون تشتت. في النهاية عليّ كصغير بينهم أن أقنع بما يقولون وإن كان ما يملكون زيف معلومات متوارثاً، ولا يعنيهم اقتناعي إن كان ظاهرياً أم لا، ربما هو احترام أُبْديه لسلطة الكِبار وعليّ السمع والطاعة. وأقول (احترام) لعدم قبولي غير تلك الكلمة التي لا تعني لي الرضا غالباً.

قصير القامة بحدبة ظهر كمستراح للطيور، يملك أنفاً مقوّساً يتوسطه حبة ينبت منها الشعر، وتجاعيد قاسية تستوطن جبينه وحول عينيه، تّثِنكَ العينين الدامعتين اللتين تشعّان بلون رماديّ، وفم لا تفارقه السيجارة، إنه صديق أبي منذ الطفولة ومن روّاد المجلس في الصباح، المنعوت دائماً بالحصني لاشتهاره بالمكر والدهاء. هذا الحصني يحفظ من القصائد الشعبية مالا يعد ولا يحصى، ومن بينها ما يتعدى المائة بيت، ويحفظها عن أبيه وجده، قصائد مليئة بالحكم وذكر لشخصيات صحراوية ولحوادث جرت في شبه الجزيرة العربية، قصائد مستفيضة يستشهد بها كبار السن ويحفظونها عن ظهر قلب لإثبات التاريخ وتوثيقه، ودائماً ما كان هذا الحصني يرشقني بنظرات تشير لوعيد أو ترقب للإطاحة بي مهما كلف الأمر. وما أراه في وجوه كبار السن المكفهرّة نهاية كل حديث معهم يؤكد لي بأنني قد أتيت بما يهدم موروثاً تاريخياً كانوا يؤمنون به.

سقف من الجص الأبيض تتدلى من زواياه أسلاك إنارة ومروحة بثلاث أذرع وأربع درجات من السرعة، وحائط بلونين، الأزرق الفاتح في الأعلى والأبيض أسفله، وصورة جدي معلّقة في منتصفه تحيط بها صورة الشيخ جابر الأحمد

والشيخ سعد العبدالله. مساند وسجاد من السدو والصوف تزين جدران المجلس، وفي الزاوية اليمنى منه دِلال القهوة وأباريق الشاي.

وقع نظري ذات صباح في مجلس أبي على علامات السدو مستذكراً ما قرأت، مقرراً إثارة نقاش مع كبار السن، فأشرت إلى مسند بجانبي قاصداً العلامات، وبصوت جهوري قطع الحديث المنفرد لبعض الجالسين، قلت:

- انظروا إلى هذه العلامات.. ألا توحي لكم بشيء غريب؟

لم يجب أحد سوى الحصني، كنت أعلم بأنه فارسهم في الحديث ولا غيره سيقوم بالمهمة. قال ساخراً:

- أنت توّك صغير وتشوفها غريبة.

صمتُّ قليلاً لأتخلص من إزعاج كلماته. بدأت مبتسماً:

- إنها علامات مليئة بالصلبان وبعض المحاولات لرسم النجوم والأهلّة والنخيل والجِمال، إنها تعبّر عن البيئة الصحراوية وتنقل صورتها بطريقة رائعة.

اعتدل الحصني في جلسته وقال مستغرباً:

- صلبان! تعني صليب الكفار؟

- صليب النصارى.. تتبعت رحلاتهم واحتلالهم لشبه الجزيرة العربية، فقد قاموا بإضافة الصليب على العلامات واستسهل رسمها البدو إشارة للزينة بينما كان المقصود بها من المستشرقين خصوصاً هو الصليب، فمنهم من كان يعمل على تنصير سكان البادية.

شعرت برغبته في عدم استكمال الحديث رافعاً كفه للأعلى، قائلاً ببرود:

- لا تتحدث أمام أحد عن هذا، وكف عنه الآن يا ولدي.

كان هذا الحديث من بين أحاديث كثيرة تُدار طوال سنوات في مجلس أبي. كنت أعتمد غالباً في النقاش على قراءاتي لكتب التاريخ وبعض المستشرقين بجانب بعض استنتاجات وتحليلات أرى بأنني تميّزت بها ولم تخرج هذه الميزة إلى العالم الخارجي الذي دائماً ما يشعرني بعجزي.

همس لي الحصني ذات مرة: «إن لم تكف عما تقول ستندم طوال حياتك لمحاربة العرب لك». كان هذا مصادفة أثناء تزامن خروجنا من مجلس أبي، ولكي لا يخرج صوته عن حدود مسامعي، همس وهو يطوي بشته الثقيل حول ذراعه بسرعة فائقة، ما جعلني ألقي بنظري على بشته لا عينيه لكي لا ينتبه أحد.

هذا الدماغ لم يع كلما كان يُدار حوله سوى ظاهره، كان جُل انتباهي للحركة التي تصدر من أفعال الآخرين دونما فهم مقاصد أخرى سوى إسقاطها على قاعدة واحدة: ما أقصده أنا بالضرورة يقصده الجميع. لم أنحدر عمقاً لأفهم الحياة في الخارج، ولم أعرف كيف أتعايش مع الآخر وفهم مغزاهم من كل قول أو فعل،أو كيف أتنقل باختلاف من شخص لآخر للتعامل معهم. لم أفهم كيف تُدار الحياة، هذا ما بدا لي.

هـذا الواقـع يُعيقنـي عـن الانطـلاق بأفـكار قـد تكـون ضـد المجتمـع. سُـلطة مجتمـع لـم أع أنني خاضـع لهـا علـى الرغـم مـن أن مـا كان يحصـل لـي مـع كبـار السـن بسـيطاً جـداً، إلا أنـه كان مرحلـة تمهيديـة مضطربـة للولـوج إلـى سـلطة أكبـر. كان المجلـس الـذي يجمعنـي بهـم بمثابـة بقعـة صغيـرة مـن عالـم كبيـر لـم أكتشـفه بعـد، وأقـر بأننـي فشـلت فـي فهـم ذلـك حينهـا.

كان مجلـس أبـي يجمـع كل أطيـاف المجتمـع بمختلـف انتماءاتهـم وأعراقهـم، وهـذا مـا نمَّـى هوايتـي فـي تدويـن الأسـماء والأنسـاب والأحـداث التاريخيـة. بـدأت فـي تدويـن أسـماء أصدقـاء أبـي وروّاد الديوانيـة، وأصبحـت بارعـاً فـي صناعـة مشـجرات القبائـل والعائـلات بمذاهبهـم، مدونـاً أسـماءهم بالتسلسـل، آتيـاً بهـم مـن أزمنـة غابـرة لأصـل إلـى آخـر طفـل ولـد فـي الأسـرة الواحـدة، كان ذلـك جهـداً عظيمـاً ومحببـاً لـدى كبـار السـن، فذكـر أسـمائهم وذكرياتهـم فـي الكراريـس كان بمثابـة تاريـخ يُسـطّر لهـم، فالكبـار دائمـاً متعطشـون للوصـول إلـى ذاكـرة الحيـاة.

وجـه مسـتدير أسـود بفـك عريـض يغطيـه جلـد سـميك وتجاعيـد تحكـي قصـص شـقاء، وبقعتـان أكثـر سـواداً وخشـونة علـى عظمتـي الوجنتيـن، عينـان صفـراوان وأنـف ضخـم عريـض بفتحتيـن واسـعتين، وشـفتان كبيرتـان تـكادان تهربـان مـن مكانهمـا، يرتـدي دشداشـة بنيـة وشـماغاً أحمـر داكنـاً، يظهـر دائمـاً بمظهـر واحـد ويتميّـز برائحـة دهـن العـود التـي تسـبقه بثـوان قبـل دخولـه المجلـس، كان ضحـوكاً وناقـلاً للأحاديـث الممتعـة، إنـه سـعيّد أبـو حسـين صديـق أبـي، كنـت أجالسـه فـي يـوم أعددتـه لتدويـن

الأسماء، قال لي بصوت ثخين مفعم بالشغف:

- هل سنقرأ أسماءنا في كتاب مطبوع؟

قلت مؤكداً:

- بالطبع، وسألتقط لكم بعض الصور أيضاً.

كنت فرحاً بفرحه جداً، لكن فرحي انقطع بانزعاج أثاره الحصني الذي ما انفك يختلس السمع حين أحادث أصدقاء أبي. وفي لحظة خاطفة نظرنا إلى بعضنا، أشار إليّ بكفه لأقترب منه، فأفسح لي المكان، بدأ بالاطمئنان عليّ كعادته قبل أن يبدأ بالحديث معي في أمر يعلم بأنه قد يزعجني. دنا إليّ برأسه هامساً:

- لا تدوّن أسماء عائلة سعيّد أبو حسين.. ليست ضرورية.

أشرت بكفي متسائلاً:

- لماذا؟

نظر إليّ بطرف عينه وهو يخفي فمه بكفه:

- ألا تراه بوضوح.. إنه أسود!

سألت باستغراب:

- ماذا يعني ذلك؟

قال بنبرة العالِم الذي يُشعرك بطريقة ما أنك ما زلت بيضة:

- اسمع يا ولدي، هؤلاء لا يعرفون أصولهم، وهم عبيد.. لكنهم في هذا الزمان أحرار؛ بدليل مجالستهم لنا.

نظرت إليه بانزعاج، وقلت له:

- أتذكر بأنك لم تصل إلى معرفة اسم جدك الخامس.

تقلّبت عيناه وقال باندفاع واضعاً سبابته على صدره:

- ولكنني حر.

ابتسمت ساخراً وتركته وأنا أتمتم بصوت خافت: «ولكنك أحمق يجالسنا..»

نقلت لأبي ما دار بيني وبين الحصني، كان حريصاً على معرفة رأيي، قلت له: «إنه عبد لعنصريته» قال أبي:»ألم يكن بلال مؤذن الرسول أسود؟» قلت: «بلى.. ولكن لم أقل للحصني ذلك، لأنني لم أره يصلي معنا حين يرفع أذان مسجدنا مؤذن أبيض..» كان أبي يريد أن يغرس فيّ حجة الدين وأخلاقياته، وهذا ما كنت أفشل في تحقيقه مع الذين يتحدثون بعيداً عن الدين، وإن كانوا يتشدقون بثوابت الدين ويحاولون إقامة حجته في أمر ما، أرجعتهم بذاكرتهم وكشفت تظاهرهم فيه. إن هؤلاء يستخدمون الدين نصرة لأنفسهم فقط..

هكذا سارت جل أيامي بجانب أبي في العطل الرسمية ومع كبار السن في مجلسه، وانطلاقة اليوم برفقة صليل النجر كإعلان لبدء قهوة الصباح ودعوة للجيران والعابرين، مع رائحة القهوة والهيل التي تعم أرجاء المنطقة حولنا. مجلس تعلّمت منه الكثير، تعاليم يُعاب في بيئتنا على من لا يتقن تطبيقها، فهي بمثابة القانون الذي لا يمكن الخروج عليه، حتى وإن كانت في حدود تعاملك مع الجمادات من حولك أو طريقة إلقاء التحية على الآخر أو في طريقة جلوسك وعدم الاتكاء بجانب من يكبرك سناً. حفظت أسماء أنواء القمر والنباتات والمطر والرياح وبعض الأمثال الشعبية المتداولة

وحكاياتها العتيقة وغيرها من المعلومات التي لم نتلقها في المدرسة، ولم أجد لها ذكراً في الكتب التي أملكها. تعلمت الكثير حتى أصبحتُ عبوة كبيرة من معلومات المجلس أسير بثقلها وسط عالم لا يهتم بها.

كان أبي قريباً مني إلى الحد الذي ظهر تميّزي لديه عن بقية إخوتي أمام الجميع وبطريقة لا تحتمل تأويلاً آخر، أنا فقط خالد لدى أبي. كان برفقتي يطوّقني في كل حركة لي وإن كنت بعيداً عن ناظره. تعاليمه القديمة المقدسة لا يمكن أن أخترقها وإن وُضعتُ في ظرف يصرخ في أذني اخترقها، فلا يمكنني ذلك. هي تعاليم قديمة ناتجة عن تربية الطبيعة، هذه الحكمة الصحراوية المليئة بالنباهة والدهاء، وما جرى لي ويسري على حالي الآن يثبت بقوة بأنني لم أكتسبها إلى الحد الذي يجعلني أتصف بها، ربما اكتساب لم أعتن به، فمات في منتصف الطريق.

لا غرابة في أن يبحث الأب عن زوجة مناسبة لابنه حسب معايير معينة أو مفاهيم كانت سائدة في الماضي وسط مجتمعات كانت مضطربة إثر انتقالها من بيئة لأخرى ومواجهة التمدّن، فكبار السن لهم الكلمة المسموعة لدى مجتمعاتهم، ويتمتعون بمكانة عالية، ووجودهم بمثابة الرأس للجسد. وبهذه الحالة فمن الطبيعي أن يكون الابن تحت إمرة أبيه وإن كان الأمر يتعلق بحياته الخاصة، لذلك أصرّ أبي أن يخوض هذا الدور في البحث عن زوجة لي، حيث كانت مثل هذه الأدوار تقوم بها الأم غالباً أو الأخت.

«ستفخر النساء بالزواج منه.. إنه إنجليزي» كان يقول ذلك وهو ينقر رأسه بسبابته مشيراً إلى الذكاء الخارق الذي أتمتع به حسبما كان يرى، هذا الابن الإنجليزي المنتصر دائماً في حروبه الشرسة أثناء حديثه مع العرب كبار السن، هذا الابن الإنجليزي الجميل الراقي في طباعه وتطوّره ونظرته الثاقبة. كل ذلك كان ظاهراً بصورة جليّة لدى أبي فقط. كان يحسبني كذلك ويرى فيّ ما لا يراه في غيري طوال حياته منذ طفولتي، وكلما سألته أمي عن سبب ذلك أخبرها بأنه يتمتع بفراسة، خبير في معرفة الرجال، ولا يردد لها ذلك إلا وهو يلفّ ذراعه حولي يسألني بلطف: «ماذا تريد أن تصبح حين تكبر؟» أجيب بأمل ممزوج بالحيرة والشغف: «سأكون طياراً، لا.. ضابطاً، أو.. أو مهندساً، ما رأيك بأن أكون طبيباً! ..» وعندما أشعر بالتيه أسأله: «ماذا تريدني أن أكون يا أبي؟» فينفجر ضاحكاً.

هي الأحلام التي تُغرس في صدورنا منذ الطفولة، ماذا تريد أن تُصبح حين تكبر؟ سؤال اعتدنا على تلقيه من الكبار دائماً، وأصبحنا نلقيه على بعضنا، ونعقد التحدي لتحقيقه فيما بيننا ونحن لم نخرج بعد من حدود العش. كنا أطفالاً، وتعجز أحلامنا عن أن تكبر معنا.. لم تعد تناسبنا.. أحلام تحوّلها الحياة إلى مجرد نكتة سخيفة، كلما جاءت بها الذاكرة ابتسمنا سخرية..

كان أبي قومياً عربياً يعتز بقوميته، ولكنه تعرض لخيبة كبيرة كحال غيره من أبناء الشعوب العربية، فأصبحت نظرته للعرب تحمل الكثير من البؤس، هذه الهزيمة التي لحقت بهم كسرت اعتزازه، وصار يصفهم دائماً بالضعاف المتخلفين،

فقد ولدت وما زال العرب يعانون من نكستهم أثناء حربهم مع العدو الصهيوني، وبعد حرب أكتوبر أضاف صفة لهم بأنهم خونة وأعداء بعضهم لبعض، فازداد نفوره من القومية التي يراها كذبة أتقنها بعض حكام العرب على شعوبهم. هذا ما جعل أبي يراني إنجليزياً منتصراً دائماً ومتألقاً متحضراً، ويبعدني بطريقة ما عن تخلف العرب واللحاق بالخيبة، ودائماً ما كان يسألني: «هل ما زلتم ترددون في طابور الصباح المدرسي تحيا الأمة العربية؟»

ولهذا أيضاً كان أبي مختلفاً عن جيله بعض الشيء؛ يمد أمواج فكره إلى العالم الآخر برحابة، يرغب دائماً بالاطلاع على حياة الذين يختلفون عنه، يقترب من أهل الحاضرة، عاشقاً هذا الفكر فيهم وشقاءهم بحثاً عن النعيم، وفي دهشة كبيرة من إنتاجهم الدائم لبيئتهم، ويرى بأن المدرسة وتحصيل العلم وسيلة حضارية ترفع من شأن الإنسان في مجتمعه وتساعده على بناء وطنه، كان يرتقي قليلاً بأسلوب حياته عن جيله منتقداً بعض أساليبهم التي توحي بفكر جامد يحتل عقولهم، ورفضهم للآخر دون مبرر، كان متقبلاً الاختلاف كارهاً الجمود راغباً في السير نحو التميّز والتطوّر مع محافظته على أخلاقه وفطرته الصحراوية. أبي ليس معي الآن، تُحيط بي صوره المعلّقة على جدران منزلي، أتذكر بريق الأمل في عينيه وهو يطيل النظر إليّ.. نعم أتذكر ذلك.

ثقيل هذا البريق في عينيك يا أبي، على الرغم من أنني كنت خفيف الوزن وأنت تحملني، أمازلتُ هناك معتلياً ظهرك! يا أبي قل لي كيف هزمت الموت لترافقني!

قبل عشرين سنة كانت الحياة مليئة بالابتسامات، هذا الفرح يجول في صدري أينما سارت بي الخطوة، طريق لا أهتم بمنتهاه، بالفعل كانت اللحظة وحدها تأخذني إلى عالمها الواسع جداً لأعيش جميع تفاصيله، لا أنظر إلى الوراء أو أشغل التفكير فيما سيحدث لي بعد قليل أو بعد أيام، كان الغد بالنسبة لي هو الذهاب إلى المدرسة وإثبات قدراتي للمعلم وقضاء بعض الوقت مع الأصدقاء في الساحة الترابية خلف المنزل، والكتابة على الجدران في الشارع، وتشكيل فريق لكرة القدم أو قراءة بعض الكتب، هذا كل ما في الحياة. والآن، كلما سقطت لحظة من حياتي، أكز على أسناني «عشها». تعبر اللحظة سريعاً دون أن تأبه بأن هناك من يستنجد بها ألا تعبر حاملة شعور الندم معها.

أنا الصغير، وأكبرنا أخي حامد، وأخي عادل يأتي بعده، ثم مرزوقة. كنّا نستعين بحامد في كل شيء حتى في اللعب. حين نعزم على البدء باللعب نقوم بالبحث عنه لينضم إلينا، ودائماً ما نواجه صعوبة في إتاحته، ولهذا كانت من أجمل الأوقات التي تجمعنا به.

من بين الألعاب، لعبة الملك وهي المفضلة لدي، تلك التي تجعلنا تحت إمرة حامد، ونحن قومه الذين يعملون على تلبية أوامره، أما الفوز فهو متعلّق بالسرعة، ويحصل الفائز على تصفيق حار من الجميع بأمر من الملك أيضاً.

كنت قد حصلت بمساعدة أمي على قطع صغيرة من أخشاب صناديق الطماطم، وهي مستطيلة الشكل أجمعها بخيوط صفراء سميكة لتصبح في النهاية تاجاً ملكياً نضعه جميعنا على رأس أخينا الأكبر حامد كإعلان لبدء اللعبة. يأمرنا الملك بجلب كأس ماء له أو حبات تمر أو تحضير نعليه أو أي شيء آخر، ونجري من أمامه منتشرين تنفيذاً لأوامره. كنت أخسر ويخطفني الحزن، وتقوم أختي مرزوقة بمساعدتي، فتبطئ من جريها لأتمكن من الفوز وأتلقى التصفيق من الجميع منتشياً بالفرح.

عملت على تطوير اللعبة، وسعيت جاهداً لإقناع أبي على شراء عقال المقصّب، هذا العقال الذي رأيته على رأس أحد رواد المجلس، وينقل التاريخ رواية تحريم ارتدائه على الفقراء والبسطاء وعامة الناس ماعدا الملوك والأمراء والتجّار وكِبار القوم.

استمر شغفنا باللعبة أشهر، وفي كل مرة أفوز فيها بمحض إرادتي مسخراً جسدي النحيل وخفة وزنه في الجري لأنال الفرح، استمر الفوز حتى بات التصفيق الحار لا يصل بي إلى الشعور بنشوة الفرح. صار اعتيادياً..

أصبح حلمي نيل ذلك العقال لأكون الآمر من بينهم. جاء أبي يجالسنا، وبكيت طالباً مساعدته في نيل العقال، قام بنزعه من رأس حامد فجأة ووضعه على رأسي. حققت حلمي وأصبحت الملك والجميع تحت إمرتي، كان الفرح يسري فيّ أكثر مما كنت أشعر به أثناء الفوز، كان عناء الجري يستحق جزاء أكثر من التصفيق.. يقشعر بدني حين أطلق كلمة أمر، لم يكن انتشاء فرح فقط، كان سحراً ينتشر فيّ، إنها لذة السلطة..

حامد كان يريد إرضائي بعد بكائي عند أبي، فلبى أوامري، ودائماً ما كان يحقق الفوز بسهولة، إنه الكبير من اللاعبين، أما مرزوقة فلم يساعدها أحد لتفوز ولو مرة واحدة، فوضعتُ العقال على رأسها، ولكن تزامن ذلك مع شعور الجميع بالملل.. في الحقيقة لا أتذكر إن كان ملاً أم لا، ولم تكن من شروط اللعبة تخلي الملك عن العقال، ولا يحق له الأمر بطاعة أحد، إلا في قانون أبي؛ كان عكس ذلك..

كانت الحياة بسيطة جداً، غائبة عني في الماضي هذه المتاعب، لم أشعر قط بأنني مثقل إلى حد الشعور بانحناءة ظهري. نعم هناك ما لا يمكن الحديث عنه أمام الملأ، أو لصديق خوفاً من أن يكون لساني كشوكة تنخزه، ربما الأفكار المتدفقة في رأسي تعجز عن الصب في الخارج، وإن أرغمتها على ذلك، كما خضت هذه التجربة من قبل، حتماً سيقطعني الندم إرباً ويلتهمني، لذلك أزيح فكرة البوح بها مراراً، وأكتفي بالتفكير طوال الوقت لوضعها في قالب يناسب هذا المجتمع الذي كنت أنا منه، أو مازلت أنا منه، لا أدري! أو أقوم بملء الكراريس بالأفكار كمحاولة لإفراغ ما في رأسي، ولكن يردم هذا كله سؤال بسيط يتسلل إليّ في كل مرة: وماذا بعد هذا كله؟ إنها كراريس ملقاة على المكتب كقطط نائمة لا تستطيع مواجهة سعار الكلاب.

مهمة صعبة أن تُضرب مراراً على رأسك لترى الحياة كما لو كنت لم ترها من قبل! كانت حياتي ثقباً صغيراً، كلما حان يوم ميلادي اتسع أكثر. لا أدري كيف تبدلت صورة الحياة أمامي؟ أم أنا فقط من ينظر إليها بطريقة مشوّهة!

3

منذ طفولتي وأنا لا أرضى إلا بأن أنال المركز الأول في المدرسة، وأتفوّق على زملائي الذين دائماً ما يلقبونني بالنمر، بسبب قدراتي الفائقة التي عجز الجميع عن إضعافها، كنت معروفاً بذلك. استمر هذا التميّز حتى سنة 1986م وهي آخر سنة لي في مرحلة الثانوية، وفي فجر يوم خميس من ذات العام وأنا غارق في النوم، شعرت بأن كل ما فيّ يحبو نحو الاختناق، أصبح صدري كبالون أُفرغ منه الهواء، وبرودة الدم في شراييني تعارك حرارة الصيف، أتقلّب على فراشي كفريسة تبحث عن الهروب من فك مفترس، نهضت بصعوبة مسرعاً أتخبّط أمامي إلى النافذة باحثاً عن هواء يدخل صدري، أخرج بكامل رأسي منها وأنظر إلى الخارج حتى بدا لي السقوط وشيكاً، فشعرت بدوار دافعاً بجسدي إلى الخلف مرتطماً بالأرض. كان الظلام حالكاً، وبعد ثوان قليلة رُفع أذان الفجر. لم أستطع الخروج من الغرفة، منهمكاً والعرق يقطر من أطراف أصابعي وكأنني طفت مضمار سباق للتو. عدت للنوم دونما شعور وأنا في مكاني.

في ذاك اليوم غاب عن مسامعي صوت النجر الذي يدقه أبي بيده في المجلس كل صباح، كان صليله يوقظني، هرعت لأتفقد صوته عبر النافذة، وأشم بعمق باحثاً عن رائحة قهوة عابرة.

للمرة الأولى يتجرأ صوت النجر على الغياب. ركضت عابراً الباب المؤدي إلى المجلس، فوجدته خالياً مظلماً تأبى أشعة الشمس دخوله، كان باعثاً للوحشة. وأنا أقف أمام باب

المجلس تعبر في مخيلتي آلاف الأفكار السامة، شعرت بلكزة في ظهري، أدرته، يقف الحصني رافعاً عصاه. قال ساخراً وبسرعة جنونية: «هل شاخ أباك؟ ألم يفق بعد من نومه؟» لم أجبه، كنت واقفاً كعمود إنارة خافتة أمامه، لكزني بعصاه على بطني وهو يقول: «يا هنوه.. انصقهت!» تركته وراء ظهري قاذفاً بنعليّ في الهواء لأبحث عن أبي.

توقفت أقبض على أنفاسي الهاربة أمام باب غرفة أبي، طرقته بقوة، فخرجت أمي تضع سبابتها على فمها وهي تغلق الباب من ورائها، وبهمسها الغاضب: «اصمت، أبوك مريض». جلست مكاني أمام غرفته، شعرت بدوار فاستلقيت أمد أطرافي إلى أقصاها، وكأنني تخلصت بأعجوبة من سكين كانت ستعبر عنقي. تكوّرت على جسدي النحيل أبكي.

هذه اللحظة أتذكرها جيداً، لحظة منذ أن مرت بحياتي وهي تفتح أبواب ونوافذ العالم، لم أعرفها من قبل. كان أولها: ماذا سأفعل إن فقدت أبي؟

غاب صوت النجر أسبوعاً كاملاً وأنا حبيس عتمة تلك اللحظة الميّتة. كان أبي رجلاً صامداً أمام اجتياح المرض طيلة حياته، يتظاهر بكامل عافيته وقدرته على الاستمرار بأداء واجباته كأب دون عناء، والأهم من ذلك ألا يغيب صوت النجر ليصدح كل صباح من يده وتتسلل رائحة القهوة والهيل إلى جميع المنازل من حولنا. إلا تلك المرة لم يقدر على الصمود، واختار الاستسلام للمرض.

كانت أمي بجانب أبي طوال فترة مرضه، ويزوره أصدقاؤه في غرفته كلما سمحت عافيته بذلك، أبي يكره الأطباء ويكره تناول أدوية كيميائية في الحالات المرضية العابرة، ويحمل قناعة بأن الأدوية الصناعية ليست سوى سم بطيء مستخدماً الأعشاب بالاستعانة بأمي في تحضيرها. وهو في فراشه كان يقاوم انهزام ابتسامته بشفتين مرتعشتين خفّة، كان عليه إلزاماً أن يبدو لي في كامل قوته، لأطمئن، وكان ينجح في ذلك.

بعد عشرة أيام عاد صوت النجر ليوقظني، دمعت فرحاً بعودة أبي. ركضت أثناء سماعي صوت الأمان الخارج من بين يديه، ووجدته يلحن بدقه للنجر لحناً جميلاً جعلني أرفع يدي عالياً وسط المجلس كسيف أمارس فيه رقصة العرضة، وأمد بخطواتي إلى الأمام ثم أعود بها إلى الخلف، وهو يضحك مستمراً بالتلحين، كانت ضحكته تغرس في جنبيّ الأجنحة وتحلّق بي لأرى ملامح الفرحة كيف تكون.

رن جرس اختبارات الثانوية العامة، كانت بالنسبة لي مرحلة صراع مع الذات لابد أن أتخطاها بإتقان وأخرج بنتائج فائقة. وبعد مرور اليوم الأول منها وأنا أحضر لاختبار اليوم التالي في غرفتي، غلبني النوم من جهد استمر عشرة أيام استعداداً للاختبارات، ولم أفق من نومي إلا في الساعة العاشرة من صباح يوم الغد. فتحت عينيّ بسرعة أنظر إلى ساعة الحائط، صعقت من فوات الوقت، فأخذت أجمع أوراقي وكتابي المدرسي مرتدياً بنطالي بالمقلوب، انتبهت إليه وأنا أنظر إلى قدميّ راكضاً في حوش المنزل فتوقفت لأرتديه عدلاً وأنا أردد بصوت عال: «لم يوقظني صوت النجر.. لم يوقظني».

«أرجوك، تعبت من الجهد ليلة البارحة» قلت متوسلاً للمعلم أن يدخلني الفصل لأداء الاختبار. رفض بحزم لانتهاء الوقت منذ ساعة. عدت إلى المنزل أجر خطوات الخيبة وأفكّر كيف سأبلغ أبي عن كسلي. وفور وصولي أمام المنزل، وجدت حشوداً من الناس لم أرها في حياتي، ومن شدة الزحام، كانوا يقفون خارج المجلس، اخترقتهم بصعوبة وأنا أرتعد قلقاً. ارتطم رأسي بصدر أخي حامد، نظرت إلى وجهه الشاحب، يلف على رأسه الشماغ بعشوائية، وعيناه ممتلئتان بالدموع.

«الوالد عطاك عمره» شد بكفه على رأسي يضمه إلى صدره بقوة، لم أر أمامي سوى لون ثوبه الأبيض الذي تدرج بانطفائه في عيني، ازداد نبض جسدي بأكمله مجتمعة الدماء في رأسي الذي كاد أن ينفجر . فقدت الوعي وغرقت في فضاء مظلم لا نهاية له.

مات أبي. انطفأت الدهشة في عيني، كانت تلتهمني، وما تراه عيني يحتضر. تركت المدرسة قاطعاً العهد على نفسي بأن أبقى محافظاً على استمرار صوت النجر ورائحة القهوة والهيل كل صباح، أدق النجر بحسرة بعد ثلاثة أيام من فراقه معلناً من دون جدوى عن وجود أبي، أدق بقوة وكأنني أنتقم من الحياة ودموعي تتساقط مخالطة الهيل. كان فقدي لأبي مفاجئاً ومريراً، لم يمر موته بسهولة من على صفحات حياتي، فمنذ وفاته والمجلس خاوٍ من أحد سواي، أما أصدقاؤه فلم يقدروا على زيارة المجلس مدة طويلة، معتذرين بأن المكان بات مؤلماً من دونه. وبعد مضي عامين، لم يعد أحد يهتم بصوت النجر ورائحة القهوة والهيل.

تركت المدرسة لمدة أربع سنوات ولم أفكر بالعودة إليها. عشت مع أمي العجوز، وإخوتي حتى صيف عام 1990م. اجتاح الجيش العراقي الكويت. كان حامد يصر على خروجنا في اليوم الثاني من الغزو بعد أن رأى التدمير الذي ألحقه الجيش العراقي. كنت في عناد حاد مع حامد رافضاً الخروج، وأتوسل لأمي بردعه للبقاء والصمود وانتظار عودة أخي عادل من صفوف الجيش الكويتي، كنت أردد بانفعال: «لو كان أبي حيّاً لبقى في الكويت صامداً» كنت أحاول أن أبقيهم على ذكرى أبي ولكن غُلب على أمري وخضعت لأوامر حامد.

أمي عجوز هادئة، هذه السكينة لا تفارق روحها محوّلة كل صعاب الحياة إلى يُسر، ظلت بقرب والدي طوال حياتها ساعية دائماً لإرضائه، لا يكاد أن يسمع صوتها، هدوء عميق، لم تبك إلا خشوعاً لله، أو لمرض أحد منا، ولسانها لا يفارقه الاستغفار. تبحث عن النجاة لصغارها.. عن ابنها عادل في سجودها.

حملت أمي ما استطاعت من الأمتعة، وذهبنا في سيارة واحدة، أمي وحامد وزوجته وطفلاهما ومرزوقة وأنا. حامد هو القائد. مررنا بالكثير من نقاط التفتيش للجيش المجتاح، ولم يطلبوا منّا سوى السجائر، كان حامد يتودد لهم لنعبر بسلام، وأختي مرزوقة تغلق فمي كلما توقفنا عند نقطة تفتيش خوفاً من أن أُصدر فعلاً يؤدي بالجميع إلى الموت. «معنا أمنا ونساء يا غبي» قال حامد بغضب وهو يقترب من وجهي، وأمي كانت تمنعه بيدها الهزيلة من أن يقوم بضربي، كنت أطلق الشتائم كلما مررنا بالجنود، هذا ما قدرت على فعله..

قبل آخر نقطة تفتيش بمئات الأمتار ونحن نسير ببطء وحذر امتلأنا بالرعب لما شاهدناه في الطريق، كان على شمالنا سيارات كويتية معطّلة يتصاعد من بعضها الدخان، وحشود في الجهة الأخرى من الجنود ورجال ونساء وأطفال كويتيون يعلو صراخهم. رأيت يد حامد ترتعش وهو يمسك بالمقود، وعيناه في المرآة تترقبان ما يحدث خشية على زوجته وطفليه النائمين في أحضانها. وأختي مرزوقة تضع كفّها على فمها تغرق رعباً، وفور وصولنا كان يقف الجنود ببدلهم العسكرية الخضراء التي تحجب الطريق من ورائهم مشهرين الأسلحة أمام السيارة، يتوسطهم قائدهم الذي تعتلي متنه رتبة عالية، ضخم البنية بشارب كثيف يسيل على شفتيه كالشمع، يحمل وجهه الدائري عينين داكنتين، كأنه من فصيلة الفقميات. سار بسرعة تجاهنا وضرب بيده الثقيلة على مقدمة السيارة للتوقف فوراً.

«انزل ولك» قال الفقمة بغضب. نزل حامد رافعاً يداه عالياً وهو يقول بارتجاف: «السلام عليكم». ضرب الفقمة بكفه كتف حامد ودفعه بقوة ورائه وهو يقول لجنوده:» فتشوا الجبان».

رفعت أمي يديها بالدعاء، واتسعت عينا زوجته خوفاً مما سيحدث به. انقض الجنود على حامد، وأخذوا يتبادلونه لكماً وركلاً، ارتجف جسد أختي مرزوقة التي تكبرني بخمس سنوات، وبكت بصمت حتى أغرقت خديها. أما زوجته فكانت تخفي طفليها بعباءتها وهي ترددد: «يا الله سترك.. يا الله سترك».

اقترب القائد من النافذة، وأمي لا تزال رافعة يديها تنظر للأعلى منهمكة بالدعاء، اقترب أكثر وأدخل رأسه من النافذة محدقاً في وجوهنا. نزلت أمي بسرعة من السيارة بجسدها الهزيل، صرخت مرزوقة: «أمي»، لحقتُ بها، استدارت أمي من أمام السيارة متجهة إلى القائد، فأمسكت بيده وهو يسندها على حزامه العريض. «أنت مثل ولدي.. اتركه أبوه ميّت وهو أكبر عيالي» قالت أمي متوسلة له، كادت أن تنحني إلى قدمه بعد أن استنفدت قدرتها وهي تشد يده إليها محاولة تقبيلها. توالت طلقات الرصاص فجأة، نظرت إلى أمي من أسفل السيارة وهي تبحث بنظرها عن حامد وراءها، عبرت الرصاصات من فوقي، صرخت أختي مرزوقة: «ذبحوا خالد.. ذبحوا خالد» استقمت من انحناءتي أمام السيارة رافعاً يديّ عالياً وبخطوات بطيئة سرت أنظر بحذر إلى الجنود خلفي. أمسكت بأمي وأبعدتها عن القائد، وضممتها إليّ عائداً بها. كان بعض الجنود يرفعون السلاح في وجهينا، فرمى أحدهم الطلقات في الهواء. كان القائد كالصخرة جامداً، رفع يده الثقيلة يشير إلى حامد وهو ينظر لأمي قائلاً لجنوده:»اتركوه»!

عم الهدوء. هبت رياح حارة دفعت بتمتمة الجنود إلى مسامعنا، جاء حامد مترنحاً ووجهه يسيل دمًا، ركب السيارة ببطء. ركل الفقمة الباب قائلاً: «تحرك بسرعة». أطلق أحد الجنود على شابين كويتيين كانا يقفان على جانب الطريق من الجهة الأخرى، فقتلهما دفعة واحدة. التفت إليهم القائد يصرخ: «عيال الكلب اذبحوهم»

كنا ننظر إليهما والذعر يملؤنا، توالت صيحات مرزوقة وهي تلطم على وجهها بقوة حتى انهارت فاقدة للوعي. وضع حامد قدمه على دواسة البنزين بسرعة متجهاً إلى النجاة، وبعد لحظات، سمعنا طلقات نارية متتالية، أجهشت أمي بالبكاء وهي تمسح بعباءتها الدماء من على وجه حامد، تردد: «يا الله استر على ولدي عادل ..»

كنت محنطاً، لم أقدر على الحراك طوال الطريق، مترنحة بي الأفكار وأنا أراقب عبور اللحظات البطيئة التي كادت أن تخطئ الاتجاه بنا نحو الموت. بكينا جميعاً تاركين أرضنا، كان الألم أقوى بكثير من فرحة النجاة.

وبعد مرور وقت عصيب، قبل دخولنا حدود المملكة العربية السعودية، كان منفذ الرقعي مزدحماً بالكويتيين، ناصبين خيامهم على جانب الطريق. انتظرنا ساعات طويلة لانتهاء إجراءات العبور إلى محافظة حفر الباطن حيث منازل أصدقاء أبي. لم يفكر حامد في مأوى لنا، كان يريد الخروج فحسب، وبعدما شعرت بارتباكه، قلت له: «اذهب إلى أصدقاء أبي، سيقومون بما يجب عليهم وفاء بصداقتهم» زاد من سرعة السيارة وكأنه تلقى الفكرة من السماء.

4

قضينا سبعة أشهر في منزل أحد أصدقاء أبي بعد إفراغه أحد منازل أبنائه لأجلنا، شعرنا بالتيه ومُلئت وجوهنا حزناً.

الحرب بشاعة البشر. لم يكن لدى أخي حل سوى النجاة التي لم تعد صالحة في الغربة. كنت منصاعاً للأوامر فقط. أن يتعلّق مصيري بالأوامر يعني تفاهتي المطلقة في الحياة. لم أتحدث مع حامد كثيراً أثناء لجوئنا إلى السعودية، كان يرى حياة طفليه أغلى بكثير من وطن مغتصب، كذلك أمي تريد النجاة لصغارها دافعة بهم بعيداً عن التشتت. أبي.. لا أدري.. ماذا لو كان حيّاً!

عمل أخي حامد في تجارة الأغنام أثناء الغزو، وبقيت بجانب أمي وأختي أرعاهما. كانت تُصرف للكويتيين إعانات، وبجانب ما يجنيه أخي من أرباح من تجارته وقيام أمي ببيع بعض أساورها سارت أمور معيشتنا على نحو جيد دون نقص في احتياجاتنا فترة لجوئنا.

«هنا الكويت» صوت المذيع في الراديو مازال عالقاً في أذني، نجلس محيطين به مترقبين الأخبار كل ساعة، وكلما سمعنا خبراً مفرحاً أردفه آخر يعود بنا إلى اليأس. لم أر عيني أمي بهذا الغرق في الحزن من قبل، ولم يفارق اسم عادل لسانها في كل وقت مترقبة عودته في أي لحظة.

كان بعض جيراننا لاجئين كويتيين، ونقوم بالتزاور فيما بيننا أحياناً، وفي كل أسبوع تقريباً يطل علينا خبر مجيء ناجين

كويتيين من الحرب، وكان الشباب السعودي الذي يعمل بعضهم على الحدود يزف لنا أخبار سلامتهم، وفور دخولهم المدينة يدلهم الناس على أماكن أهاليهم.

ذات يوم من تلك الأيام التي تشتد بها الأعصاب حد التلف، كنا مجتمعين في منزل أحد الجيران الكويتيين، نترقب وصول دفعة شباب آتين من الكويت، الأمهات يمسكن بعلب الحلوى مترقبين لحظة دخول أبنائهن، وأمي تمد نظرها من بين أجسادهن لترى بزوغ وجه ابنها. أما الرجال فكانوا ينتظرونهم بمسدسات وأسلحة رشاشة ليطلقوا رصاصات الفرح بوصولهم.

يقبل الناجون الكويتيون، تُطلق الرصاصات في الهواء، تُرمى الحلوى فوق رؤوسهم، ويصدح صوت الباب. تستدل الأم على ولدها وتركض نحوه، فيقبّل يديها، تأخذه جانباً تحتضنه باكية، أما أمي فلم تفرح برمي الحلوى، كانت تحتفظ بها تحت سريرها طوال فترة الغزو منتظرة عودة عادل.

كنت أرى انكسارها، دمعاتها بلون الحزن تتظاهر بالفرح، تشارك فرحة الأمهات بابتسامات مرتعشة. «قلبي يقول إنه عند ربه» هذا ما تردده طوال الطريق في كل مرة نعود فيها إلى منزلنا دون عادل.

كانت أياماً مليئة بالأحداث، قضيت معظمها جالساً على الرصيف بصحبة أبناء أصدقاء أبي الذين يحاولون دائماً أن يبقوني على أفضل حال مهما كلفهم الأمر من عناء. أُناس طيبون.

أتذكر أهل الحي الذي نسكن فيه كيف كانوا يجلسون أمام منازلهم في الليل تحت أعمدة الإنارة الصفراء، يتناولون القهوة والشاي وصوت المذياع يعلو على أصواتهم. وصاحب البقالة رشيد الباكستاني الذي يمنحنا الحلوى بالمجان كل يوم، وأم مشعل جارتنا، لا نشعر بالصباح إن لم نمضغ خبزها الساخن، وحكايات أصدقاء أبي الذين يجتمعون نهاية كل أسبوع في منزلنا بضيافة أخي حامد، ومغامراتي مع أصدقائي في الصحراء ورحلات الصيد القصيرة، أتذكر أيضاً العلب بنيّة اللون، تلك التي كانت تمطرنا بها سماء الصحراء بعد إعلان الحرب الجوية، علباً مليئة بأطعمة الجنود الأمريكان، وكل واحد منّا ينتظر فرحة عثوره على واحدة منها. شطة، خبز مغلف، وسلطة معلّبة، رز في كيس صغير مضغوط، وبسكويت. نمنح لأنفسنا السعادة حين نلتهمها بدلاً من الجنود الأمريكان، ونمارس لعبة الحرب منقسمين كفرق متنازعة وبخيالنا نُمسك بالعصي كأسلحة فتّاكة، ونصرّ على أن اللعبة تنتهي بالعودة إلى الوطن منتصرين..

بعد إعلان التحرير أمرت أمي بالعودة إلى الكويت وهي في أسوأ حالاتها، فالمرض كان ينهش جسدها الذي لم يتبق منه سوى العظام.

دخلنا الحدود الكويتيّة بتصفيق وزغاريد الفرح ملصقين الأعلام على السيارة، كانت فرحة أمي لا تخلو من الانقباض، سرعان ما تذبل ابتسامتها بعد ثوان من ولادتها، تدعو ربها أن تجد عادل ينتظرها في المنزل.

وجدنا منزلنا كما هو عليه، لم يتعرض للتخريب سوى القليل من الشظايا التي اخترقت جدرانه من الأمام، وفور مشاهدة بعض الجيران لنا، هموا بالمجيء لاستقبالنا.

«كنت أحرص دائماً على تفقد المنزل طوال فترة الغزو، وزوجتي تقوم بتنظيفه كل أسبوع». هذا ما سمعته من جارنا أبو هادي وهو يخبر حامد بما حدث أثناء صمودهم فترة الغزو. كان صديق أبي هو أيضاً. «عادل ولدي ما شفتوه..؟» تسأل أمي كل من تراه في الشارع..

مجلس أبي، عصاه المعلّقة على الحائط، بشته على المسند، النجر ودلال القهوة وأباريق الشاي والسدو، كل شيء ينتظرني، ما عدا صورة جدي والشيخ جابر الأحمد والشيخ سعد العبدالله.. فقد أزالهم أبو هادي.

مضى عام على الغزو. ازداد مرض أمي حتى فارقت الحياة في صباح يوم كئيب بعد استقبالنا خبر استشهاد عادل بأربعة أيام. بقيت أنا ومرزوقة في منزلنا، وتركنا حامد ليسكن في بيته الجديد هو وعائلته.

5

لم يتوقف الزمن، إنه يتدفق بلحظات عابرة لا تعير لوجودي اهتماماً. ما زلت ألهث تعباً من الجري وراء اللحظات الضائعة من حياتي، وكلما قبضتُ بإحداها، تسللت من بين أصابعي هاربة كالدخان.

الفصل الثاني

1994 - 1996

1

«انهض..انهـض». خالـد مسـتلق علـى الأرض يحـاول فتـح عينيـه، رأس أصلـع يحجـب نصـف قـرص الشـمس عـن نظـره، يصـرخ فـي وجهـه فـم كبيـر بأسـنان صفـراء يعلوهـا أنـف عريـض وعينـان لوجـه أسـود لامـع مـن العـرق، يصـرخ بغضـب حتـى كاد يعـض أنـف خالـد بأسـنانه المدببـة. تلتهـم الشـمس جسـده وحرارة الإسـفلت أحرقـت ظهـره، قلبـه ينبـض بسـرعة، يحـاول بصعوبـة بلـع ريقـه الجـاف. بعـد دقائـق وهـو مغمـض العينيـن، شـعر بأيـادٍ كثيـرة تحملـه فـي الهـواء، ومسـامعه تسـتقبل صـوت أحذيـة تـدك الأرض بانتظـام، ومـن سـرعتها نفحـه الهـواء مخففـاً مـن حـرارة جسـده. ينظـر إلـى السـماء وهـي تترنـح، وكأنـه مصـاب علـى ظهـر ناقـة. فقـد وعيـه مـرة أخـرى.

فتـح خالـد عينيـه علـى إبـرة يخزهـا ممـرض فـي ذراعـه، وبجانبه زميلـه علـي، أسـمر بفـك طويـل وشـارب كثيـف يخفـي فمـه، يقـف شـابكاً ذراعيـه علـى صـدره، ظهـرت أسـنانه الصغيـرة مبتسـماً. «أنـت بطـل، والتعـب منسـي» قـال علـي بمـلء العزيمـة. ابتسـم خالـد فـي وجهـه، فأشـار علـي بإصبعيـه كعلامـة انتصـار وهزهمـا بخفـة قائـلاً: «لـم يتبـق سـوى القليـل». وبعـد سـاعة تقريبـاً، عـاد خالـد إلـى صفـوف زملائـه فـي الميـدان الرئيسـي لتدريـب أفـراد الشـرطة. فقـد خالـد نصـف وزنـه وبـدا جسـده كموميـاء هاربـة،

ووجهه كثمرة فلفل أحمر، وأصبح ينعته زملاؤه بفلفل منذ أن ابتدأت الدورة.

التحق خالد بمدرسة الشرطة في عام 1994م. لم يختر خالد الالتحاق عن قناعة، ولكنه وجد أن الوظيفة ستعيد له الحياة الميتة التي كان يعيشها بعد فقدان أبويه واستشهاد عادل، متعذراً لنفسه بإعانتها وأخته مرزوقة التي أصبحت ترفض الزواج من أحد بحجة البقاء بجانبه في المنزل، كانت تقاوم الصراع الذي عجن عقلها، فبعد مشاهدتها قتل الشابين الكويتيين أثناء توقفهم عند نقطة التفتيش، أصبحت في حال يرثى لها، وأصيبت بمرض الصرع، وعلى فترات قصيرة كانت تصدر بعض التصرفات الغريبة وتطلق الكلمات التي لا تتقن توظيفها في حديثها، حتى شاع أمرها ونعتها الصغار بالخبلة، فزاد حالها سوءاً، وكلما جاءها رجال لخطبتها نفروا منها بسبب الأقاويل التي تدار عنها. وضِعت مرزوقة في وَهَم حالها بأنها هي من ترفض الزواج بأحد. قام خالد بتوفير خادمة لها لترعاها فترة التحاقه بالدورة التدريبية.

كان الالتحاق بالجهات العسكرية أمراً شائعاً ومرغوباً آنذاك يدفع الجيل الذي عاش الغزو العراقي إلى الالتحاق بالجيش والشرطة بعد الفترة القاسية التي عاشتها البلاد، دفعهم الآباء للالتحاق بتشجيع لهم على التأهب دائماً لأي خطر قادم، وزادت الروح الوطنية، بعد سماعهم عن أبطال المقاومة وأفعالهم المشرفة في التصدي للعدو أثناء الغزو. بدا على الكثيرين التديّن بعد الغزو أكثر مما سبق. «الغزو عقاب من الله وابتعاد عنه» كانت من أكثر الأقاويل تداولاً في المجتمع

الكويتي، وبدأ فكر الصحوة يعود بقوة مؤثراً على الكويتيين اللاجئين في المملكة العربية السعودية، فحمله البعض منهم من جديد عائدين به إلى بلادهم بعد التحرير.

كان خالد واحداً من أولئك الذي تأثروا بتلك الأقاويل. تعرّف على مجموعة من الأشخاص التقى بهم في المسجد القريب من منزله، وبعد لقاءات عدة عقب صلاة العشاء تطوّق بهم متأثراً بسلوكهم ومظهرهم مطلقاً لحيته مقصراً ثوبه مكتفياً بالشماغ منسدلاً من على رأسه، جامعاً لأشرطة مشايخ الوعظ والخطب الدينية التي ترثي حال الأمة الإسلامية السيئ وتحث على التمسك بالثوابت الإسلامية والعمل على نشرها في كل مكان بأساليب مختلفة.

جمع خالد في تلك الفترة الكثير من الكتب الدينية والمصادر والمراجع وساعده بعض الأشخاص في المسجد على ذلك. يقرأ أحياناً في المنزل منعزلاً وفي أحايين أخرى يأخذ من ركن المسجد مكاناً له برفقة صديقه عوض الذي يكبره سناً.

كان عوض هذا يرشد خالد إلى بعض الكتب ويدفعه إلى وجوب قراءتها لاستقامة عقيدته، ويهمّش بعض الكتب التي لا نفع منها وتكثر بها الشبهات حسبما كان يحشو رأسه، ويحذره من أن تدفعه إلى انحلال فكره مؤثرة على عقيدته كمسلم. وبالرغم من محاولات خالد لفهم عوض في انتقائه لبعض كتب لمشايخ وعلماء في الدين دون غيرهم إلا أن عوض كان ماهراً في السيطرة على أسئلة خالد وملاحظاته.

أصبح رأس خالد مع مرور الأيام يُدار حسبما أراد عوض له الاستدارة وفي أي اتجاه يكون، وتحولت إرشاداته كأوامر لم ينتبه خالد إلى أنها كذلك، بل كان عوض بالنسبة له معلماً يفوقه خبرة ويسبقه تديناً وعلماً، وكفى به أنه جليس للمشايخ الكبار.

عانى خالد من لحيته عندما قرر الالتحاق بمدرسة الشرطة. كان القانون العسكري آنذاك يمنع اللحى عن طولها المسموح به عسكرياً، ويعسر على كثير من الأشخاص إطلاقها فتخلوا عنها أثناء دخولهم الدورة التدريبية. سمحت لجنة المقابلات لخالد بإطلاق لحيته متعهداً ألا تطول عن الحدود المسموح بها شافعاً له أخوه الشهيد فكسب استعطاف اللجنة.

مبنى كبير جداً يتوسطه ميدان للتدريب وآخر أكبر منه للاحتفالات الرسمية، محاط بأبراج حراسة من كل جانب، يستلم مهامها مناوبون من أفراد الشرطة. يضم المبنى مهاجع للأفراد المتدربين وآخر للمدربين، ومطعماً وبقالة صغيرة، وحمامات عمومية، ومستودعات للأسلحة ومبنى للخدمات الطبية، وبعض القاعات ليتلقى فيها المتدربون دروس العلوم الشرطية. لكل مهجع حظائر تضم أربعة أسرّة وبجانب كل سرير دولاب من حديد وفي نهاية المهجع غرفة للمصلى ودورات مياه خاصة. مبنى متهالك، وبقع من الظلام في أغلب زواياه ويخفت الضوء في بعض الأماكن منه، رائحته قذرة تخالط الهواء في الرئة، ولا يُسمع فيه ليلاً سوى نباح الكلاب ومواء القطط المجتمعة حول النفايات أو أهازيج أفراد معاقبين بالتدريب في الميدان.

«أهلاً بعودة الفلفل» قال المدرب بخيت ساخراً وهو يمسك بلحية خالد أثناء وقوفه في الميدان بجانب زملائه استعداداً للتدريب، مُرحباً بعودته إلى الصفوف بعد سقوطه من التعب.

بخيت، هذا الوحش طالب ضابط مهمته تدريب أفراد الشرطة، شرس وقاس جداً لا يخشى أحداً، حاول مراراً عض أنف خالد. يدرّب بخيت الأفراد يوماً بعد يوم، وفي يوم تدريبه لهم يؤمهم خالد في صلاة الفجر ويطيل الدعاء لتيسير تدريبهم ويكفيهم شرور بخيت، ولا ينهضون من المصلى إلا بعد أن ينطقوا بالشهادة.

لا يعرف بخيت الرحمة، وأعذاره التي كان دائماً يقولها للأفراد كل يوم، أنه من الضروري معاملتهم كأسرى ليشعروا بهم ويكونوا صامدين أمام الأعداء، ويذكرهم دائماً وهو يطوف حولهم قائلاً «أنا عدو». لا صداقة ولا إنسانية يعرفها، وأثناء حضور القادة الكبار يقف بخيت باعتزاز المهنة صارخاً: «نعم، نحن هنا نصنع الرجال».

«وأنتم تعلمون جيداً يا معشر الأحذية بأنني في كل مرة قبل دخولي المعسكر أُلقي رداء الإنسانية خارجاً، ومن لا يصدق ذلك سأجرّه من قفاه ليراه هناك، مفهوم!»

كان يردد هذه العبارة عليهم بغضب شديد في كل صباح على الإفطار، وكأن إفطاره الشهي هو مشاهدة الرعب في أعينهم. كل يوم يأكل الأفراد بسرعة رهيبة، ولا يُسمع منهم سوى مضغ الطعام ولعابهم يسيل على ذقونهم كأنهم لم يتناولوا الطعام منذ ولادتهم.

«ثابت العموم» صاح بخيت وكأنه في حالة حرب فارتجفت أجساد الأفراد خوفاً. يأمرهم بالتوقف عن تناول الإفطار الذي بدأ قبل دقيقة واحدة. ومن بين الصفوف البشرية المستقيمة يقف خالد بجسده الذابل ساكناً لا يتحرك منه سوى فكه وهو يمضغ الطعام المتبقي في فمه وعيناه يقلّبهما بين اليمين والشمال مترقباً غفلة بخيت عن الصف الذي يقف فيه. مد يده خلسة إلى قطعة الجبن أمامه من على الطاولة بعد أن أدار بخيت ظهره إليهم. أمسك خالد بإصبعيه على قطعة الجبن، صرخ بخيت وهو يرفع يده: «فلفل، أيها الغبي اللعين.. تعال هنا.. لا ترم ما في يدك» ضرب قلب خالد كالطبل متدفقاً الدم في وجهه.. خرج من الصف متجهاً إلى المدرب، فتوقف خلفه.

يقف بخيت مديراً ظهره إلى خالد، مد يده إليه لينا ولهما في يده. بدأ خالد يرتعش ممسكاً بالقطعة فرفعها ليسقطها في يد بخيت.

استدار بخيت فجأة كزوبعة وهو يحدق بغضب في وجه خالد، قال:

- ما عقوبة السارق؟

لم يعد خالد قادراً على التنفس، فقال بارتعاش:

- تُقطع يده.

ضم بخيت يديه خلف ظهره واستدار حول خالد، فسأل بهدوء:

- قل لي يا فلفل، ماذا لو كان السارق فأراً؟

ظل خالد صامتاً وركبتاه ترتعدان. قال بخيت بعد ثوان:

- حسن، سأجيب أنا.

ابتعد المدرب عن خالد وعلى مرأى من جميع الأفراد رفع يده إلى الأعلى ممسكاً بقطعة الجبن وهو يقول بصوت عال: «لدينا سارق هنا والسارق فأر، لنرى معاً ما هي عقوبته.. انتباه».

ترقب الأفراد عقوبة جنونية تحل بخالد. رمى بخيت قطعة الجبن على الأرض أمام خالد وسط صمت يعم أرجاء المطعم، التصقت قطعة الجبن بالأرض، تنقّل خالد بنظره من المدرب إلى القطعة أسفله، فانحنى المدرب إليها وهو يقول: «سيلتهمك الفأر أيتها البيضاء الجميلة» التفت المدرب بسرعة إلى خالد وقال آمراً: «هيا أيها الفأر،كُل فإفطارك جاهز» صعق خالد من أمره وبدت عليه الذلة. صرخ المدرب بقوة وهو يطيح بخالد أرضاً: «هيا أيها الفأر». انحنى خالد برأسه حتى اقترب أنفه من الجبن، ينظر إليها وعيناه ممتلئتان بالدمع قهراً.

صرخ بخيت: «كُل..كُل..كُل..» يدفع برأس خالد يقرّب بفمه إليها، وأخذ يفرك وجهه على قطعة الجبن حتى امتلأ منها. أمره بالنهوض وعودة الانضمام إلى الصفوف.

عاد خالد بانكسار والجبن يملأ لحيته. ضحك بعض زملائه، وأمرهم بخيت بالاستمرار. عاد خالد مكانه بين الصفوف. همس له زميله علي: «اصمد يا بطل».

تآكل عقل خالد من قسوة المعاملة منذ التحاقه بالدورة التدريبية، شعر بحيوانيته معهم. لم يكن يعلم بوحشية التدريب وهروب الإنسانية من بعض المدربين وتدريباتهم التي تدعو الموت للحضور.

كان النظام يسمح في المدرسة بعودة المتدربين إلى منازلهم في نهاية كل أسبوع، يقضيها خالد في الأكل والنوم مبتعداً عن أي جهد وإن كان عملاً بسيطاً يضيع من وقت راحته.

بعد أسبوع من الهلاك أصبح الفأر لقباً لخالد بدلاً من فلفل. وبدا في انعزال عن زملائه ماعدا علي، يجلس وحيداً لا يخاطب أحداً ولا يرد على سؤال، ويدير وجهه عن الجميع باحثاً عن الهدوء غارقاً في التفكير. كان يعاني من صراع داخلي، أمواج الأفكار تتلاطم في رأسه، فكلما تعرض لموقف ما وإن كان بسيطاً يقوم بتشريحه محاولاً تفسيره، أو كلمة تخرج من أحدهم يقوم بتتبع خطواتها ليصل إلى مغزاها. فوضى في رأسه صنعتها المشاهد التي رآها أثناء التدريب، كان الجميع أمامه يستميت للإطاحة بالآخر.

مر من جانبه زميل له يضحك ساخراً، وهو يقول:

- يدك لا تكاد أن تُرى.. ستُدهس أيها الفأر عندما تُطبق عليك أحكام السرقة.

نظر خالد إليه بغضب، فأدار وجهه عنه. بعد دقائق، اقترب زميله منه وعاود الحديث قائلاً:

- لن تشفع لك لحيتك.. هي نبت شعر على ذقنك الوسخ.

التفت خالد إليه غاضباً، ولكمه على ذقنه فجأة، فسقط أرضاً.

اجتمع حولهما الأفراد يصفقون بتشجيع على بدء العراك، ويدفع البعض بخالد للقيام بضرب زميله مرة أخرى وآخرون ينضمون إلى زميله لإشعال الغضب فيه والأخذ بحقه. بدأ العراك وطوق الأفراد المكان كحلبة مصارعة بهتاف يملأ المهجع.

كان خالد غاضباً محاولاً الاقتراب من زميله للكمه على وجهه مرة أخرى، بينما زميله بدا ساخراً منه واثقاً من هزيمة خالد أمامه. وبعد شد وجذب، قفز زميله رافعاً ساقه مسدداً ضربة بقدمه على رأس خالد. ارتطم وجهه على الأرض وامتلأ فمه بالدماء، وطُنت أذنه. خالد ملقى وسط الهتافات بفوز زميله، عادت به ذاكرته إلى أبيه الذي كان ينتظر منه أن يصبح طبيباً أو مهندساً أو أي مهنة مهمة في المجتمع، أخذ يجمع ذكرياته وفي صدره يعيث الحزن، تمتم وعيناه تنطفئ: «ابتعدت كثيراً عن ظن أبي». بكى بشدة وهو في مكانه. أسرع علي ينهض بخالد مبتعداً عن الذين يهتفون: «بكى الفأر.. بكى..»

«أتبكي!» قال علي وهو يزيل الدماء من على فم خالد. «لم تؤلمني الضربة بل خيبة أبي فيّ مؤلمة.. مؤلمة» قال خالد وهو في غرق البكاء.

فقد خالد ثقته بكل من حوله بعد تعرضه للتنمر والضرب، كما لو أنه وُضع في عالم ليس بعالمه، بعيد تماماً عن فكرته في الحياة، وعن ذاك العلم الذي جعله نمراً بين زملائه في المدرسة، وفراسة أبيه التي ميّزته.

«أنا أخو الشهيد ومكاني ليس هناك» قال خالد باعتزاز وهو يقف في وجه بخيت رافضاً أمره بالجلوس في دورات المياه ليعزله عن بقية زملائه الذين اتهموه بإصدار صوت أثناء طابور الصباح. جحظت عينا بخيت. صفق ببطء وهو يقول ساخراً: «الفأر أصبح بطلاً» استدار حوله وهو ينظر إليه، فتوقف يهمس في أذنه: «ولماذا لم تستشهد أنت أيها الفأر!» قبض خالد على يده غيظاً، قال: «لذات السبب الذي لم يجعلك شهيداً..» ضحك بخيت، وقال بصوت عال للجميع وهو يشير إلى خالد: «اليوم حفلة انتصار الفأر، فليستعد الجميع».

وبعد مرور أيام من عقاب دنيء، عاد خالد يقلّب لحيته بكفه التي دائماً ما تضعه في تناقضات، وأصبحت له الهاجس الذي يشعل فكره متسللاً في كل ليلة إلى دورات المياه ليقدر طولها في المرآة مستخدماً إصبعه للقياس حتى لا تجرؤ على الخروج عن الحد المسموح به ويتلقى عقابه في طابور الصباح.

ابتعاد خالد عن أصدقائه المتدينين وعن القراءة التي كانت تقوي من عزيمته جعله يأخذ قسطاً من التفكير خارج الدائرة التي دخلها بعد تحرير الكويت، يجول باحثاً عن فعل من أحد المدربين أو من أحد زملائه يحمل تعاليم وثوابت إسلامية في مكانه هذا، حتى صديقه علي كان يستحقر البعض، ما جعله في انزعاج منه أحياناً. أما الذي أثبطه بقسوة فهو ذاك الحديث الذي دار بينه وبين بعض زملائه فترة الاستراحة.

«أنت كالحمار يحمل أسفاراً.. مثلي تماماً قبل عام» قال سليمان مخاطباً خالد في وسط الحديث. سليمان بارع في إقناع البعض للتخلص من لحاهم قبل الدورة التدريبية، قال جملته تلك التي كانت كصاعقة ضربت خالد.

- من هم مشايخك؟

نظر خالد إلى سليمان مستغرباً. قال:

- مشايخ ماذا؟

ابتسم سليمان ساخراً. نظر إلى زملائه وقال لهم:

- يبدو أنه حديث العهد أو أنه هارب من حلق لحيته خوفاً على بشرته الحمراء.

ضحكوا واحمر وجه خالد مردداً:

- ماذا تعني؟ قل ماذا تعني؟

اقترب سليمان من خالد حتى التصق صدره بوجهه، وطوّقه بأسئلة ذات نبرة حادة:

- من هم مشايخك؟ تعلمت على يد من؟ من هم معلموك؟

بحث خالد عن إجابة في رأسه، فتلعثم قائلاً:

- تعلمت في المدرسة، وقرأت الكتب واستمعت إلى أشرطة الخطب والدروس.. ولدي أصدقاء صالحون، ومعلمي صديقي عوض..

قاطعه سليمان:

- من.. من؟ من هو معلمك؟

قال بتكرار محرج للفظ الاسم:

- عوض محمد.

سأل باستغراب:

- ومن يكون هذا؟ وما هو نهجه؟

قال خالد بثقة:

- طبعاً الإسلام.

نفخ سليمان منزعجاً، وسأل بغضب:

- حسن، قل لي تقرأ وتسمع لمن من المشايخ؟

عد خالد على أصابعه:

- للشيخ الطُرقي، والشيخ المسنّا والشيخ الكوخي وغيرهم الكثير من المشايخ والخطباء الأجلاّء.

نظر سليمان إلى رفاقه وقال بصوت خافت مستهزئاً:

- يبدو أن الذي يؤمّنا ضال.

عندما علموا عن قراءاته وأسماء مشايخه أخذوا يحاجونه بفكرهم وتوجهاتهم، وتاريخهم الفاضح ومواقف بعضهم المؤيدة للغزو ضد الكويت. أخذ سليمان يكشف لخالد عن خيبته بعد أن استدل على حقيقة ما كان عليه من اتباع أعمى وتغييب عن الواقع..

وجد خالد نفسه حائراً غير قادر على الدفاع عما يحمله من قناعات. ولج الشك في نفسه، وأنه لا يسير في الطريق الصحيح من حياته. لم يع خالد حينها أنه يتبع تياراً معيناً،

بل كان على إيمان تام بأنه عاد إلى الله كما لو لم يكن يعرفه من قبل، متذكراً تردد عوض بقبول فكرة الالتحاق بمدرسة الشرطة، وحمله البغض لبعض المشايخ ومؤلفاتهم. أخذ خالد وعداً على نفسه بأن يعود إلى مواجهة عوض والتوسع في القراءة والتفرغ لكشف حقيقة العبث الذي أحدثه سليمان ورفاقه في رأسه. استمرت حيرته مهملاً اتخاذ قرار وهو في مكانه، منتظراً اللحظة التي ستجمعه بعوض.

وفي اليوم التالي من الحديث التعيس الذي دار بين خالد وسليمان ورفاقه، رفع خالد أذان الظهر في المصلى، فاجتمع الأفراد، وحين نهض لإقامة الصلاة، نهض وراءه سليمان ممسكاً بذراعه بشدة، وهو يقول: «دع عنك الإمامة.. سأتولاها». وقف خالد صامتاً خالياً من أي فكرة في رأسه ما عدا العودة إلى الوراء بسلام. منذ ذلك اليوم لم يرفع خالد الأذان ولم يؤم الأفراد في صلاة واحدة، فتهكم به أصدقاؤه «ارتد صاحبنا.. مل المطوّع..» حتى انكسر شيء ما في نفسه.

بعد أسابيع من الدورة غلب جميع الأفراد النعاس، خالعين أحذيتهم ليريحوا أقدامهم من ثقلها وهم في إحدى القاعات يتلقون دروس للعلوم الشرطية.

يقف المحاضر في المنتصف شارحاً درسه. كان علي في الصف الأول ينقل إلى دفتره ما كُتب على السبورة، أما خالد يلقي رأسه على الطاولة من غلبة النعاس محاولاً إخفاءه وراء ظهر علي.

عـدد الأفـراد يفـوق السـبعين والمـكان يفـوح برائحـة الجـوارب التـي لا يشـمّها أحـد منهـم، فحاسـة الشـم اعتـادت علـى وجودهـا. بـدا الانزعـاج علـى وجـه المحاضـر، فأمـر الجميـع بالنهـوض، وعلـى دفعـة واحـدة اسـتقامت أجسـادهم مـا عـدا خالـد فـي أعمـاق نومـه.

«ارتـدوا أحذيتكـم.. رائحتكـم كرائحـة الدجـاج الميـت أيهـا الأوغـاد» قـال المحاضـر. أخـذ الأفـراد يرتـدون أحذيتهـم بسـرعة وانتظـام. انتبـه المحاضـر إلـى رأس خالـد الملقـى علـى الطاولـة، وأشـار علـى الجميـع بالتـزام الهـدوء، التفـت علـي إلـى المحاضـر، وأومـأ الأخيـر بسـبابته ليصمـت. اقتـرب مـن خالـد منحنيـاً إلـى أذنـه صارخـاً: «أيهـا الفـأر» فـزع خالـد وعـاد بكرسـيه إلـى الخلـف واقعـاً علـى الأرض. ضحـك الجميـع. أشـار المحاضـر بيـده وهـو يقـول: «اتبعنـي أيهـا الفـأر».

وقفـا أمـام الجميـع. قـال المحاضـر وهـو يضـع كفـه علـى تكتـف خالـد: «هـذا الفـأر هـو محاضرنـا اليـوم، فلنسـتمع إليـه». كان خالـد مرتبـكاً يقـف بصمـت حائـراً بمـاذا سـيبدأ ومـا الـذي عليـه فعلـه حتـى يخـرج مـن ورطتـه بسـلام فائـزاً برضـا المحاضـر.

راح المحاضـر وجلـس مـكان خالـد علـى الطاولـة، ومـازال خالـد واقفـاً ينظـر إلـى الجمـوع. التفـت وراءه يقـرأ المكتـوب علـى السـبورة. شـعر بأنـه ليـس علـى اسـتعداد للبـدء. اسـتعاد أنفاسـه الضائعـة، وبـدأ يرخـي جسـده والجميـع يترقـب كلمـة يتفـوّه بهـا. قـال خالـد بنفـس واحـد: «سـأقول مـا لـدي، وأعلـم أننـي فـي مـأزق سـأعاقب عليـه مهمـا بلـغ علمـي بمـا نقلـه لنـا سـيدي.. حتمـاً سـأعاقب، ولذلـك سـأقول مـا لـدي..»

صمت خالد قليلاً ينظر إلى طاولة المحاضر. مد يده يمسك الممحاة ويشد عليها بقبضته ليخفف ارتباكه قليلاً. استدار إلى السبورة يمحي ما هو مكتوب. أخذ بطبشور يرسم نجوماً كثيرة تتوسطها نجمتان كبيرتان، وبيت صغير بباب ونوافذ مفتوحة وبجانبه رسم مبنى صغيراً كتب عليه مدرسة، وفي الزاوية رسم قوساً تعلوه نقطتان إشارة لابتسامة. ضحك الجميع، ورفع المحاضر يده يأمر بالصمت.

استدار خالد إليهم وتقدم قليلاً وهو يشير إلى رسمته، قال: «هذه كانت حياتي، خالية تماماً من أي شيء يُذكر، سوى من منزلنا ومجلس أبي ومدرستي.. حياة بسيطة جداً لا أعرف كيف كانت تسير، ولا يهمني أمرها إطلاقاً، هي تسير، وأنا أتناول اللحظة منها متلذذاً بها وأعيشها بفرح دونما تعقيد. تلك النجوم هي أصدقائي في الطفولة الذين غابوا فجأة، وأبي هناك بينهم، وأمي أيضاً، وأخي الشهيد عادل يبتسم، وإخوتي وأصدقاء أبي، كنت أقضي معظم وقتي معهم، كبار سن، كانوا بمثابة الأساتذة، آخذ منهم ما ينير عقلي ويزيد من فهمي للحياة، كنت لهم التلميذ الذي يشاكس بعض أفكارهم، ويحاول بقناعاته إعادة ترتيبها ونفض الغبار عنها، ولكن الآن لا أجد أحداً مثلهم، نعم، أقر بأن عيبهم الوحيد أنهم سلطويون.. لا أدري ربما أنا الخنوع الذي لا يتحرك سوى بالأوامر، ولا يعرف كيف يصطاد الفكرة إلا بصنارة الآخرين.. على أقرب تقدير حتى الآن هم الأفضل بالنسبة لي مقارنة بما تعلمته هنا، أو بما يحصل لنا جميعاً في هذا المكان الذي أتينا إليه بمحض إرادتنا لنتعلم دروس الشرطة ونطبقها في

الخارج.. في هذا الوطن.. وطننا الذي كان قبل سنوات قليلة بلا حياة يضج بالدماء والموتى والدمار، وطننا الذي لم يشف بعد من جراحه وأسراه التائهين، ولم تجف دماء شهدائه.
هل حقاً لم يجرؤ أحد منّا على أن يسأل نفسه ما الذي نفعله طوال الوقت هنا! هل نعي بأننا لا نفعل سوى التدرّب بوحشية ونقسو على بعضنا وكأننا في قتال بلا دماء! هل هذا ما أتينا من أجله! أن نتقاسم العنصرية والكره، الظلم والانتقام، أن نصنع رجالاً لا يعرفون كيف يديرون تفكيرهم! إن كان كذلك، فأنا لا أستطيع أن أكمل هنا.. هذا الفأر اللعين لا يستطيع أن يهرب دائماً من أحذية الكبار.. تخلصوا منه بسرعة وإلا سيلقي بنفسه في إحدى قمامات بخيت»!

كان البعض يستمع إليه بذهول، وبدا على وجه علي الابتسامة فرحاً به. عاد خالد إلى السبورة، وقام بالخربشة عليها حتى تشوهت تماماً وصعب تفسيرها، ثم كتب أسفلها: «الحياة بعين فأر».

رمى خالد الطبشور على طاولة المحاضر، ووقف باستعداد ووجهه يضج بالدماء قائلاً: «انتهى الدرس» صفّق المحاضر ببطء وهو يقول: «بطل يا خالد.. بطل» اتبعه بعض الحاضرين في التصفيق والبعض الآخر بصقوا تحتهم كرهاً مطلقين صيحاتهم بعدم الإعجاب.

مع قرب انتهاء الشهر الأخير من التدريب ازدادت فترات استراحة الأفراد، يلتقون مع بعضهم في ساحة قريبة من مهجعهم، يتبادلون الأحاديث والآراء ويحكون قصصاً عن الجن، ويجرون ذكرياتهم إلى بداية الدورة التدريبية.

- ماذا بك، تفكر كثيراً هذه الأيام؟

قال خالد وهو يقبض بلحيته، متنهداً بعمق:

- لا أدري يا علي، لم يبدر في ذهني بأنني سأخوض هذه التجربة المريرة في يوم ما.

ضحك علي وقال:

- انتهت المدة يا خالد.. أمر طبيعي أن نخوض تجربة الدورة.

خطا خالد قليلاً إلى الأمام واضعاً يديه في جيبه، قال:

- لا أقصد الدورة، بل ما شاهدته وتعلمته منها، كان بعيداً كل البعد عن تصوراتي، لم أحظ بتصور واحد صحيح كنت أحمله قبل الالتحاق بها.

اقترب علي منه، وقال:

- سينتهي كل شيء؛ ابتسم ..

وفي فجر يوم الأربعاء بعد مرور تسعة أشهر من التدريب، استعد الجميع للتخرج من الدورة غائباً عنهم النوم فرحاً بالتخرج والعودة إلى منازلهم بشكل نهائي والالتحاق بوظائفهم التي تنتظرهم. بقي خالد في فراشه مستيقظاً ينتظر لحظة الخروج من باب مدرسة الشرطة..

«لقد صنعنا الرجال، وهم على قدر ومستوى عال من التدريب وفهم كاف في العلوم الشرطية خدمة لوطننا الحبيب..» كان بخيت يعتلي المنبر ليختتم الدورة التدريبية بكلمات سببت الأذى لخالد وهو يقف باستقامة بين الصفوف. انطلقت إشارة الانتهاء، وانفض الجميع من الميدان كالريش الذي أثاره الهواء، منتشرين في جميع أنحاء الميدان، كان أهالي بعض الأفراد حاضرين الاحتفال، وعملوا على تطويقهم بالورود، وعم الميدان التصفيق والزغاريد.

يسير خالد بجانب علي متجهين إلى باب المعسكر ليغادراه وسط مشاهدة احتفال زملائهم طوال الطريق.

2

تعلمت أثناء فترة التدريب التي قضيتها بأن السمع والطاعة ليست نظاماً نتّبعه مع كبار السن فقط، بل في مدرسة الشرطة أيضاً، أوامر صارمة لا يمكن لأحد منا أن يومئ برأسه رافضاً إياها، ولن يشفع له سقوطه من التعب أو يفلح بالهروب منها تظاهراً بالمرض أو مواجهة الظلم، بل سيرمى في القمامة لحين إفاقته بمطفأة الحريق كما حدث لزميلي علي.

ذات يوم من الأيام القذرة التي عشتها هناك، كنت أطل من النافذة ليلاً بعد سماعي صوت ضربة تلاها مواء قطة تستنجد، فشاهدتها ترفس بسرعة تستقبل الموت، وعلى بعد خطوات قليلة عنها شاهدت بخيت ممسكاً بعصا متينة كان قد ضربها بها وهو يقوم بتهريب السجائر لأحد زملائي، فتواريت عن أنظاره بسرعة عندما وقعت عليّ. حبوت أرضاً لأصل دورة المياه قبل مجيء بخيت ليفترسني، وحين رآني علي في حالتي تلك استلقى بجانبي يسألني عما إن كان هناك أمر يدعو للحبو ليلاً. أخبرته بما شاهدت، كنا كالصراصير نخشى العقوبة من أي تصرف يبدر منا وإن كان طبيعياً. سمعنا خطوات بخيت تقترب، واختبأت في دورة المياه، وبقي علي صامداً يواجه الخطر وحده، وحين التقى بخيت بعلي في دورة المياه، ظن أنه هو الذي رآه. صرخ: «هل تراقبني أيها القذر؟» لم يخف علي منه، وكانت جرأته تفوق الوحش الأسود أمامه، قال بثقة: «تهرب السجائر لأقربائك وتظن بأنك الشريف بيننا!». سمعت صفعة، فتحت باب دورة المياه ببطء ألقي بنظري على ما حدث، كان علي طريحاً. قام بخيت يجر علي من ساقه

سائراً به خارج المهجع وهو يردد بصراخ: «ستندم يا كلب..» فاستيقظ الجميع من نومه على ذلك المنظر.

حلت لعنة بخيت على علي يومها، فلم يخرج لمنزله مدة شهر، وفي تلك الليلة المشؤومة، عاقبه عقاباً قاسياً، كان هو أحد الذين تم رميهم في القمامة ولم يفق إلا بمطفأة حريق تُرش على وجهه، وحُرم من النوم يوماً كاملاً.

لم أكن جريئاً لأعترف بمشاهدتي عملية التهريب من النافذة. ازداد يقيني بأنني فأر حقاً، جبان لا يقدر على المواجهة وقول الحق. حاولت تحطيم ذاك اليقين حين وقفت في وجه بخيت رافضاً أمره بالجلوس في دورة المياه منعزلاً، وقام بإعداد حفلة أنا بطلها، ويسهر عليها الزملاء للضحك.

كنت في فراشي الساعة الحادية عشرة قبل منتصف الليل والهدوء يبحث عن النوم ليلقيه فيّ، ضُرب الباب الحديدي للمهجع بقوة. دخل بخيت يصرخ: «استعدوا لحفلة انتصار الفأر..» نهضت من فراشي أبحث عن نعليّ، فألقى بكفه على قميصي يجرني وراءه.

وقفت بجانب زملائي في الظلام أسفل المهجع، وبخيت يجلس عكسياً على الكرسي تحت بقعة ضوء عمود الإنارة. لا صوت سوى الذي تصدره حشرة صُرّار الليل. أشار بيده لأجيء إليه. وقفت بجانبه مستعداً، فقال: «لقد وعدتكم بحفلة ممتعة الليلة.. ستضحكون حتى تنهار أمعاؤكم.. مفهوم؟». «مفهوم سيدي». قالوا بصوت واحد، وظللت صامتاً أقبض على أنفاسي الهاربة.

أمـر بخيـت الأفـراد بالجلـوس علـى الأرض اسـتعداداً لبـدء الحفلـة. ناولنـي قطعـاً مـن الفحـم وهـو يأمرنـي برسـم وجهـه على الحائـط، كان أمـره غريبـاً مـا جعلني أسـأله لأتأكـد، فصـرخ: «ارسـم وجهـي أيهـا الفـأر».

وبعـد انتهائي مـن رسـمه بعشـوائية، قـال لـي: «تحـدث إليّ فـي الحائـط بتوسّـل لأعفـو عنـك». اسـتدرت إلـى الحائـط، وقلـت: «أرجـوك، أتوسـل إليـك أن تعفـو عنـي يـا سـيدي، أرجـوك..» ضحـك الجميـع، وطلـب منـي أن أرددهـا عشـرات المـرات. كانت الكلمـات تعصـر عنقـي. اختنقـت، واحتقـن وجهـي غضبـاً، فقلـت دونمـا شـعور: «اعـف عنـي.. أنـت أسـود حقيـر لا أصـل لـك..» أثـار البعـض صيحاتهـم متسـللاً مـن بينهـا صـوت رمـي الكرسـي على الأرض، وخطـوات بخيـت الغاضبـة، فالتفـت إليـه، كاد قلبي يفـر مـن صـدري، لـم أع مـا قلـت، متذكـراً الحصنـي، وسـعيد أبـو حسـين.. وقـف أمامـي كالوحـش، كان وجـه بخيـت يتآكل غضبـاً، ينفـخ حتـى سـال لعابـه. وبعـد ثـوان تقهقـر غضبـه، فهـدأت أنفاسـه وسـكن جسـده الغاضـب، عـاد بخطواتـه ببطء إلـى عمـود الإنـارة، يلقـف كرسـيه الملقـى علـى الأرض ليجلـس.

أشـار إلـي بالمجـيء، فناولنـي قطعـة ثانيـة مـن الفحـم، وعـاد يخطفهـا مـن يـدي. نظـر إليهـا وأدارهـا بيـن كفيـه قليـلاً، وراح يرسـم علـى عمـود الإنـارة بجانبـه. وجـه امـرأة بشـعر مجعـد ومفاتـن واضحـة.. رشـقني بنظـرة لـن أنسـاها، بعـث لـي بهـا حقـه فـي الانتقـام.. جلـس بهـدوء، وقـال للأفـراد: «هيـا صفقـوا، اليـوم حفـل زواج أخينـا خالـد مـن هـذه السـوداء الفاتنـة». لفـظ اسـمي أول مـرة بمناسـبة غيـر رسـمية. أمرنـي بالوقـوف بجانـب عمـود الإنـارة والتصفيـق يـزداد، وهـو يـردد: «مبـارك.. مبـارك».

أمر الجميع فجأة بالصمت رافعاً ذراعه للأعلى، وقال: «هيا قم بدورك يا خالد..» صمتُّ أنظر إليه. فقال: «هل تسمع! قم بدورك الآن ..». أطرق رأسه، ثم نهض وهو يرفع يديه صارخاً: «عاشر فاتنتك» احمر وجهي. لم أنجُ من أمره. بدأت في تمثيل المعاشرة مع عمود الإنارة أمام الجميع.

بكيت بشدة، كنت قذراً، ثقل صدري خيبة.. الانتقام جعلني عنصرياً وقحاً...هذا الإنسان الذي نبحث عنه فينا يغرق بحيوانيته حين يغضب..

سعيت مراراً لأحطم ذاك اليقين بصعوبة. تجرأت في المحاضرة، وقلت ما لدي في دقيقتين أمام الجميع والخوف يطوّقني.. وإن استطعت تحطيم اليقين، فأمامي الكثير من الأصنام التي لم أتعرف عليها بعد..

تعلمت أننا نُعامل كالأسرى في تلك الدورة اللعينة، كالأسرى! ولم أعلم قط بأن معاملة الأسرى تكون بهذا السوء، نحن مسلمون، وما زلت متمسكاً بهذه الفكرة حتى الآن، ولكن لم يكن الرسول الكريم يعامل أسراه بهذه الطريقة، لقد قرأت غير ذلك تماماً، لا أدري إن كان الزمن الذي يبعدنا عنه هو السبب في خطأ ترجمة الحدث أم لا. نعم كما حدث ذلك مع بخيت، حتماً بأنه كان طفلاً مسالماً، فأصبح وحشاً مفترساً!

لا أدري كيف صمدتُ في تلك الأيام على مواجهة المتاعب التي لم ترهقني جسدياً إلى حد كبير بقدر ما كانت تؤلمني من الداخل، وما زاد ألمي كان في آخر يوم من هلاك

تسعة أشهر، عندما شاهدت بخيت في السماء مرفوعاً بأيادي الأفراد، محتفلين بتخرجهم وباعتزازهم به، كانوا يقذفون به عالياً، وهو الذي لم يعمل على سقي قطة وكان يدفع بنا نحو الموت متعذراً بأنه يصنع الرجال!

«المركز الثاني الشرطي خالد» هكذا قال بخيت في حفل التخرج، لقد حصلت على المركز الثاني في الاختبارات التحريرية، واستلمت الكأس وأنا على ثقة بأنني أستحق الأول. لم أهتم بذلك كثيراً، بل ما أثار إعجابي بنفسي حقاً وناولني الثقة بحفنة من الكلمات التي تلقتها مسامعي في تلك اللحظة الأخيرة أثناء لقائي بالمحاضر أثناء صخب احتفال التخرج. جاءني المحاضر مبتسماً، وهو يقول بإعجاب: «أنت بطل حقيقي يا خالد، رأيت أمامي أستاذاً رائعاً، لا أدري كيف أقول لك بأنك ستصبح في يوم ما رجلاً مهما وأنت شرطي، ولكن حتماً ما سمعته منك في المحاضرة يؤكد لي ذلك بقوة..» كنت أتلقى كلماته بفرح، ابتسمت ابتسامة عريضة لأول مرة منذ تسعة أشهر. مضيت برفقة علي، أخذت أردد: «هل سمعت ما قاله لي يا علي! هل سمعت!» كأنني استعدت شيئاً ما قد سُلب مني.

أصبحت عبداً للأوامر. لم أشعر في يوم ما بأنني صاحب أمر، وإن كان في حدود طلب كأس ماء! لم أع بعد، وعلى ما يبدو لي فإن الوقت لم يحن لأكون على قدر كاف من الوعي الذي يجعلني أرى الحياة بوضوح..

3

- سأعطيك النقود، وعليك تركها فوق صندوق الكهرباء الذي أخبرتك عن مكانه قبل قليل.

أخذت منه المال بيد مرتعشة. سار أمامي قليلاً، سألته:

- ولِم لا تفعل أنت ذلك يا ياسر؟

التفت إليّ، وقال بانزعاج:

- أنا المسؤول هنا، اتبع أوامري يا شيخ خالد. هل فهمت!

تم تعييني في السجن المركزي بعد انتهائي من الدورة التدريبية، وقضاء إجازة لمدة أسبوعين. لم أنم أو آكل في حياتي مثل تلك الأيام. رغم تفكيري الدائم في صديقي عوض محمد إلا أنني تكاسلت عن مقابلته وبقيت أصلي في المنزل دون مواجهة أحد سوى إخوتي.

سور عالٍ بداخله مبان عديدة، أحدها السجن المركزي، والذي يضم إدارة السجن، وعيادة طبية، وغرفة لأفراد الشرطة المناوبين، وعلى بعد أمتار منها ممر يؤدي إلى بابين من حديد لا تتجاوز المسافة بينهما متراً واحداً، من خلفهما عنابر عديدة من على اليمين والشمال يتوسطهما ممر طويل بإضاءة خافتة، ولكل عنبر مسؤول من المساجين أنفسهم، مهمته الإشراف على السجناء وكتابة حركة دخول وخروج أفراد الشرطة للعنبر في دفتر الأحوال.

يوزع السجناء حسب قضاياهم في العنابر، عنبر المخدرات، المتاجرة بالخمر، السرقة، المشاجرات، القتل، وأمن الدولة، والاغتصاب والتزوير. كان ما يميز مدرسة الشرطة أنها أنظف بكثير من السجن، بالرغم من أن العنبر يحتوي مائة سجين على الأقل، إلا أنهم يجعلون فضلاتهم مكشوفة كأنهم يشفقون على الذباب والصراصير من الجوع. لم يعرفوا التعاون في تنظيف أماكنهم، إلا بالأمر الذي قد يصدر مراراً دون تنفيذ، وحتى إن ظهر منهم من يهتم بالمكان وتنظيفه إلا أنه لا يسعه أن يقوم طوال الوقت بتنظيف الأرض التي يُبصق اللبان عليها كل دقيقة. لا يخاف أحد هنا بسهولة، ولا يملك السجين منهم ما يخشى أن يخسره، لذا لا يبالي.

«هي نظافتي أليس كذلك؟» قال لي أحد السجناء وهو يشير بسبابته الوسخة إلى صدره بعد تقديمي له النصيحة بالتنظيف. سرعان ما أردف غاضباً: «أمر الشرطة غريب.. حتى حرية النظافة تسلبها!» كنت مقرفصاً أمامه، فنهضت يائساً من الحديث معه متجهاً إلى صندوق الكهرباء. أخرجت لفافة قماش نتن من جيبي ووضعت داخلها النقود مترقباً المكان حولي. تركتها فوق الصندوق، وهرعت أتوارى وراء الحائط منتظراً صاحبها.

كان الفضول بداية العمل يشغلني دائماً لمعرفة كل شيء يُدار في السجن، لا أشعر بالرضا وجهلي يطوقني في عملي. بعد دقائق من وقوفي، رأيت سجيناً متيناً يضع بين شفتيه سيجارة يسير ببطء نحو صندوق الكهرباء. توقف يلتفت وراءه، خطف لفافة القماش بخفة ساحر، فوضعها في جيبه.

لـم تتركـه عينـاي حتـى دخـل عنبـره. عنبـر السـرقة.

يسـتغل بعـض زملائـي هنـا مظهـري المتديّـن، ويوكلـون لـي مهمـة القيـام بخدمـات جليلـة لهـم، وأقـول خدمـات جليلـة، لأخفـف عـن نفسـي وطـأة الانصيـاع البائـس لأوامرهـم بحجـة سـلطتهم، نعـم كانـت أوامـر أقـوم بتنفيذهـا، فالشـبهة بعيـدة عنـي تمامـاً، ويسـهل دخولـي إلـى العنابـر دون شـك مـن أحـد، وبيسـر أفعـل مـا أريـد، هـذه هـي منافـع لحيتـي فـي هـذا المـكان.

أتولـى مهمـة تهريـب احتياجـات السـجناء بـدلاً مـن أصحابهـم أفـراد الشـرطة المناوبيـن، كل الاحتياجـات، ومنـذ اليـوم الأول وأنا علـى هـذا الحـال. سـجائر، أمـواس حلاقـة، ونقـود.. لا أدري مـا حاجتهـم للنقـود فـي هـذا المـكان..

كان اليـوم الأول لـي فـي السـجن المركـزي يشـابه تمامـاً يومـي الأول فـي المرحلـة الابتدائيـة، كنـت تائهـاً، وفـي بدايـة التيـه شـعرت بـأن الأمـر طبيعـي ويمـر بـه كل شـخص فـي عملـه الجديـد ولزامـاً عليـه معرفـة سـير النظـام ولائحـة القوانيـن وطبيعـة العمـل الـذي يقـوم بـه، ولكـن لـم يحصـل معـي ذلـك مـع مـرور الوقـت، فـازداد شـعوري بـأن ثمـة أمـراً مـا يثيـر الاسـتغراب، خلـلاً لـم أقـدر علـى معرفتـه. أصبـح العمـل أكثـر تعقيـداً، ولـم أصـل بعـد إلـى هـذا الوضـوح الـذي يجعلنـي أعمـل دون أمـر مـن أحـد، أو أن أعـرف مـا هـو عملـي بالضبـط، ومازلـت أجهـل أيضـاً مـن هـو المسـؤول الحقيقـي هنـا، وفـي كل أسـبوع تقريبـاً يظهـر لـي مسـؤولون جـدد..

مضى على تعييني هنا قرابة الشهرين، وفي كل يوم أحاول فهم سير العمل، وكلما اقتربت من الزملاء شعرت بنفورهم وكأنني موسوم بعدم الاقتراب. لم أجد إجابات شافية عما يدور حولي، أما أصحاب الرتب العليا هنا فلا أراهم، فقط الضباط الصغار الذين يعملون بصمت ويطلقون الأوامر الروتينية في بداية تعييني، ومن يتولى مهمة نقل الأمر عنهم غالباً ما يكون من أفراد الشرطة المقربين، وهم أنفسهم يتغيب معظمهم ليلاً وأناوب بدلاً عنهم.

هذا العالم الذي يجمع المجرمين وراء القضبان ويقيّد من حريتهم حسب ما أعرفه من قبل، أصبح مكاناً يمنح الحرية بطرق أخرى غير تلك التي أعرفها، ولم أر أي شيءٍ بعد يثير إعجابي بالنظام، هو مجرد مكان كبير يعيش فيه أناس وحريتهم فيه تقف حدودها عند عدم خروجهم منه، ما عدا ذلك فكل شيء موجود، بل رأيت أشياء في السجن لم أرها في الخارج إطلاقاً.

عالم السجن يتوّلد داخله عالم آخر، بأنظمة وقوانين خاصة به، وأعراف تسير على الجميع دون اعتراض من أحد، ولا أدري كيف يكون النظام صالحاً والإدارة تولي السجين مسؤولية دفتر الأحوال والإشراف على السجناء! وما يثير الغرابة أنهم يطلقون على أنفسهم مسميات وألقاباً متخلين عن أسمائهم الحقيقية ويستخدمونها طوال الوقت، وهذا يسري على عنابرهم أيضاً، كعنبر التزوير الذي يطلقون عليه مسمى فريج الوثائق، وعنبر السرقة فريج التمويل، وعنبر الاغتصاب فريج بتايا!

عاد ياسر إليّ بمهمة تهريب النقود مرة أخرى، ولكنها أكثر مما مضى، وأخبرني أن أضعها بنفس المكان، ولكن في وقت متأخر من الليل. قبلت بشغف. كان عليّ أن أبدأ باكتشاف ما يُدار هنا بنفسي دون مساعدة من أحد.

وضعت لفافة القماش، هذه المرة فارغة من النقود. بدأ الفيل الضخم يتقدم نحو الصندوق، وأنا أقف خلف الحائط مترقباً. قام بخطف اللفافة، وظهر على وجهه الاستغراب من وزنها الخفيف، وبدت له فارغة، أخذ يلتفت يمينه وشماله منزعجاً، فاستدار إلى عنبره، وسرت وراءه بخفة حتى ظهر أمامي قفاه غاطساً في ظهره.

قلت له بهدوء:

- توقف.

جمد مكانه ولم يستدر. خطوت لأقف أمام وجهه. حاجبان صغيران يعلوان عينين كعيني ديك بأجفان متدليّة، وجسده الممتلئ الذي تفوح منه رائحة نتنة تخرج منه ذراعان كأكياس معبأة بالرمال. رفع حاجبيه وهو يقول مستغرباً:

- أنت! ماذا تريد مني؟

سألته:

- ما الذي أتى بك إلى هنا بعد منتصف الليل؟

قال منزعجاً:

- ما شأنك! أنا حر هنا.

قلت وأنا أبتسم:

- النقود معي.

ظل صامتاً يحدق في وجهي، ويعقد حاجبيه كأنه يحاول التعرف على ملامحي. بدا عليّ الارتباك، وشعرت بأنني أفعل ما لا يجب عليّ فعله مع هذا الفيل. صمدت لكشف ما يُدار. قال باستحقار وهو يمد يده السمينة:

- هات النقود.. هيا بسرعة يا شيخ..

قلت بغضب:

- لن أفعل، وسأجعل الجميع في هذا المكان يعلم بأمرك إن لم تخبرني من وضعها لك هناك!

ابتسم ساخراً:

- أنت من وضعها.

احمر وجهي. قال:

- هيا أعطني النقود.

- لن أعطيك.. أخبرني ماذا تفعل بها؟

لم يجبني، وظل يردد بطلبها. همست إليه:

- هناك ضابط يراقبنا.. عليك إخباري الآن، فلن أؤذيك..

شعرت بارتباكه، وأخذ يلتفت وراءه، فقال:

- أشتري بها.. أتاجر.. أقامر.. إنها نقود..

بدا لي هذا الفيل كأرنب وهو يتوسل إليّ:

- أرجوك، أرجوك لا تخبر الضابط الجديد..هذا سر بيني وبينك..

أعطيته النقود ومضى كبطريق محاولاً الوصول إلى فريج التمويل بأقصى سرعة. بقيت أشد على الأفكار لأخرج باستنتاج واحد حتى وصلت إلى غرفة المناوبة وأنا أقلّب التفكير.. تجارة.. مقامرة.. شراء وضابط جديد!

لم أصل إلى نتيجة، وكلما أخذني التفكير إلى أن الضباط لهم يد في كل ما يدار هنا في الخفاء وجدته أمراً من المستحيل قبوله. ثمة فرق بين المدرب بخيت والضباط هنا بكل تأكيد، فبخيت لم تتعد أوامره خارج التدريب، وتهريبه للسجائر كان لأقاربه وبنفسه دون علم أحد.

بعد أسبوع من العمل بصمت. جاءني ياسر بمهمة جديدة، أقوم بتهريب عبوات ماء معدنية وأضعها عند الصندوق. لم أكن أهتم بشأنها على الرغم من أن الماء متوفر بكثرة في الداخل، ورغم أن العبوات بدت جديدة كلياً، إلا أن رائحتها كانت غريبة، هذا ما جعلني أفكر بالإلقاء بها في القمامة وأنا أحملها. عدت إلى التواري خلف الحائط لأرى السجين الظمئ.

رجل مفتول العضلات بشارب كث يكاد رأسه يلامس الإضاءة في السقف، يسند على خصره سلة ملابس، خيّل لي بأنه ديناصور عائد من الماضي، جاء يقترب من الصندوق بثقة، فانحنى يأخذ العبوات ويخفيها في السلة ثم استدار عائداً. سرت خلفه ببطء أترقب دخوله العنبر، وفي نهاية الممر التفت نحوي وظل يحدق بي، فتوقفت أتظاهر بمراقبة العنبر من على يميني، لمحته يستمر في طريقه، وسرت خلفه مرة

أخرى حتى وصل إلى عنبر قضايا الخمور، فريج الطيران. اقتربت من العنبر، ووجدت المسؤول من المساجين يتحدث مع الديناصور صاحب العبوات. قلت: «سأدخل». نظراً إليّ وأخذ المسؤول يكتب في دفتر الأحوال حركة دخولي.

دخل أمامي الديناصور وهو يحمل السلة، وحين دخلت توقف جميع من في العنبر ينظرون إليّ، وجوههم بدت كمشردي شوارع شيكاغو في الأفلام. لم يتلفظ أحد بكلمة، ولم أملك الجرأة على تفقد العنبر، فلم يسبق لي الدخول إطلاقاً، ولم أفكر بذلك. عدت أدراجي، وهم ينقلوني بنظرهم إلى الخارج، وسرت في الممر مبتعداً عنهم.

علمت سبب وجود هذا العنبر في نهاية الممر. انتظرت حتى لا أفسد عليهم حفلتهم التي يستعدون لها. مضت ساعة وأنا في غرفة المناوبين، يجالسني أحد الزملاء، شعرت بالملل من تفاهة أحاديثه، مقرراً العودة إلى فريج الطيران لأرى حالهم بعيني، اقتربت منهم كثيراً وبدأت ضحكاتهم تعلو. وقفت أمام باب العنبر، نظر إليّ المسؤول وفي يده عبوة ماء، وجلس الآخرون بشكل دائري في منتصف العنبر، وكل واحد منهم يمسك بعبوته. طرق المسؤول باب العنبر بمفتاحه لينبههم إلى وجودي. فالتفتوا يحدقون بحدة. نهض الديناصور من بينهم وهو يقول ساخراً: «شرفتنا يا شيخ».

عدت إلى الوراء، كانت وجوههم تبث الذعر فيّ، لم تكن بهذه البشاعة قبل ساعة.

استدرت مغادراً، لحق بي المسؤول طالباً مني العودة للتحدث في أمر مهم. سرت معه إلى العنبر، فقام بفتح الباب ودخلنا سوياً. قال السجين المسؤول: «رحبوا بالشيخ يا طيارين، سنحلق معاً»، ضحكوا حتى سعلوا. نهض بعضهم وهم يرفعون بعبواتهم للأعلى، وآخرون يضعونها على رأسهم، وأخذ البقية يصفقون ويدورون من حولي راقصين. كان المسؤول يصفق ويردد: «شيخ يا شيخ.. شيخ يا شيخ.. « قاذفاً بسيجارته المشتعلة إلى الأعلى معبراً عن فرحه. أما الديناصور فكان يترنح أمامي راقصاً، محاولاً الإمساك بيدي لأشاركه. انزعجت وضج رأسي بصراخهم، واشتعل بي الغضب محاولاً إسكاتهم. أمرتهم بالاكتفاء. لم يأبهوا لأمري، شعرت بالضيق من حالي ومن هذا العمل الذي رمى بي إليهم، ظهروا لي كالدمى أمامي يتراقصون بلا صوت. فقدت سيطرتي وأنا غارق في الغضب، صفعت الديناصور صاحب العبوات وهو يترنح أمامي، هذا العملاق سقط أرضاً. صمت الجميع، واعتلت وجوههم الصدمة وهم ينظرون إلى صديقهم الطريح. كان المسؤول فاغراً فاه لما حدث. وبعد الهدوء الذي عم المكان، انتبهت لما فعلت، وشعرت بألم في كفي الذي بدأ ينبض. تسارعت ضربات قلبي، واستدرت مسرعاً إلى الباب خارجاً عنهم.

كنت في أوج الشعور بالندم عما حدث، ولكنني أطبطب على حالي وأدفع بنفسي إلى الثقة بأنني أبليت بلاء حسناً، وأقدمت على خطوة كان عليّ أن أخطوها منذ أول أسبوع لي هنا.

بعد يوم التقيت بياسر وكان غاضباً من فعلتي. أخذ يوبخني، ويهددني بمحاسبة شنيعة، ولكنني صمدت أمامه، متذكراً لحظتها زميلي في التدريب عليّ حينما صمد بجرأته أمام المدرب بخيت.

- لن تقدر على فعل شيء يا ياسر.. أنا حر أيضاً.

هدأ، فقال:

- يا خالد أنا مسؤولك وعليك..

قاطعته غاضباً:

- أنت لست بمسؤول سوى عن الفساد هنا.

ضحك ياسر بقوة، فقال:

- أنت شريك في هذا الفساد يا شيخ.

احمر وجهي، شعرت بحرارة تسير في جسدي. قلت مدافعاً:

- لست شريكاً، وإن كان ما تريد أن تتهمني به سينهي أمري، فهذه خدمة جليلة ستقدمها لي.

حدق في وجهي وانصرف، وبقيت مكاني أفكر فيما قلته له، كان همي الوحيد هو الاستمرار على العمل بدون تلقي الأوامر، فقط أعمل بنظام، ولكنني كنت أخشى أن يفعل بي السوء. الرجال يعملون. لا أستطيع البقاء في المنزل بجوار مرزوقة وأتلقى الأموال من الحكومة إعانة لي دون عمل. فالبقاء بالمنزل يشعرني بضعفي، لهذا أنا متمسك بالعمل في هذا العالم القذر.

بعد ساعات قليلة وأنا جالس في غرفة المناوبين، دخل علينا ياسر يأمرني باتباعه، فالضابط يطلبني للمقابلة. كان الأمر بالنسبة لي سيّان، لا أخشى العقوبة. وماذا عساه أن يقول ياسر للضابط إن كنا معاً شريكين في الفساد. امتلأت بالثقة وسرت خلفه.

- لماذا يا خالد لم تتبع أوامر مسؤولك؟
- بل أتبعها ما عدا الأوامر التي تخرج عن طبيعة عملي.

نظر إلى ياسر، وقال لي بهدوء:

- حسن، اتبعها مهما كانت، فهي تفيدك في التقرير السنوي للأفراد، وتحصل على تقدير عال يساعدك في الترقية.

كنت أستمع إليه دون شعور بصدقه، فقلت بعدما رشقت ياسر بنظرة:

- لا بأس، سأفعل ذلك.. ولكن عليّ أن أخبرك بأمر مهم.

قال وهو ينظر إلى ساعته غير مبال:

- قل ولا تطل!
- هناك مساجين يخرجون عن النظام ويقوم بعض أفراد الشرطة بعمليات تهريب ممنوعات يعاقب عليها القانون، بل سجنوا من أجل حصولهم عليها.

قال بطريقة غريبة وهو يسخر:

- ممنوعات.. القانون.. مساجين.. لا شأن لك.. أنت هنا لفعل ما نريد فقط.

قلت باستغراب:

- ماذا يعني ذلك!

ضرب بقبضته على المكتب قائلاً:

- هل تفهم أيها الشرطي؟ افعل ما تؤمر به.. هيا اخرج.

علمت بأن الأمر يتعلق بالضابط فعلاً، فلم يبد استنكاره بما أخبرته عن عمليات التهريب، وإلا ما هي السلطة التي يملكها المهربون ليتجرؤوا على فعل ما يريدون! لقد أصبحنا جميعاً شركاء في هذا الفساد. خرجت غاضباً إلى غرفة المناوبين.

بعد دقائق من جلوسي، اقترب سامي مني، زميل لي في هذا المكان. قال لي ناصحاً: «عليك أن تتبع الأوامر، الأمور هنا تسير بشكل مختلف تماماً. هل فهمت!» لم أرد عليه، وظللت صامتاً حتى حان موعد مناوبتي الليلية. عاد ياسر إليّ بمهمة جديدة، كنت أتلقاها منه بصعوبة. أعطاني علبة حلوى صغيرة اسطوانية الشكل مغلفة بكيس شفاف:»قد تكون هذه آخر مهمة توكل إليك. ضعها في نفس المكان دون مشاكل.» لم أشعر بصدق ما يقول. وكما هي العادة، قمت بوضعها فوق صندوق الكهرباء ومضيت بلا مواربة.

وفي منتصف الليل، جاء سامي يجلس بجانبي هذه المرة كاشفاً لي خفايا السجن.

كل شيء من الممنوعات يباع هنا؛ أدوات حلاقة، مخدرات، خمور، وأيضاً بيع الملابس والسجائر وغيرها من الاحتياجات والممنوعات، وما أثار غرابتي بأن أدوات الصرف الصحي يتم شراؤها أيضاً، فبعض السجناء الذين يرون أن مكانهم يجب أن يكون أرقى من هذا السجن القذر يقومون ببناء دورات مياه خاصة بهم في عنابرهم لتسعهم وحدهم، ويلجؤون إلى مساعدة بعض الآسيويين في بنائها. ويوجد أيضاً بعض الوظائف للمساجين، كالفرّاش والطبّاخ والحلاق والخياط، وغاسل الملابس، مقابل رواتب شهرية ضخمة تفوق أسعارها الحقيقية في الخارج عشرات المرات، إنها فعلاً سخرية العالم، حين أجد أن النظام الاقتصادي هنا أفضل بكثير من الخارج على الرغم من ارتباطه به أحياناً إلا أنه الرابح على الدوام دون خسارة.

بعض أفراد الشرطة يتاجرون على حساب المساجين ويجنون أموالاً ضخمة، ويشترك معهم بعض الضباط كذلك. أخبرني سامي بأن الأفراد والضباط المستجدين لا تتضح لديهم هذه الخفايا بسرعة إلا بعد تجربتهم من قِبل الضباط والمسؤولين، وبعضهم يحلو له الأمر ويدخل عالم التجارة. وما يثير الضحك حقاً، أن بعض الضباط هنا يقومون بتدوير الأشياء وبيعها على المساجين، إنهم يستثمرون! يقوم أحدهم ببيع المحظورات عن طريق شرطي وسيط، وبعد أيام يقوم الضابط بجولة تفتيش في العنابر ليصادر المحظورات، ويعاود

بيعها على مساجين آخرين، وبهذا تبلغ فائدته الضعف. أبلغني سامي بأنه علي تجربة ذلك، فالأمر سيختلف بالنسبة لي مقابل الراتب الشهري الذي أتلقاه.

شعرت برغبة بالتجول بين العنابر بعد حديث سامي الصادم، والذي دفعني بشغف إلى رؤية أحوال السجن، وسيكون دخولي إلى العالم هذه المرة بطريقة تختلف عما كانت عليه بجهلي السابق.

سرت في الممر منتصف الليل وأنا أضع يديّ في جيبي، أخطو ببطء ملقياً بنظري على العنابر من بعيد. أصبحت الرؤية الآن تختلف، ولكن مال الشعور بي إلى الحزن، والتقيت بنفسي فجأة، كنت أهرب بعيداً عن محاسبتها لأبسط الأشياء، هذا الضمير يلفظ أنفاسه الأخيرة، وزاد فيّ الشك بأنني أضعت الطريق، فكل ما قد مررت به في الأشهر الماضية بات يقلقني. سأبقى على هذا الحال، ولن أقدر على تغيير شيء من الحياة أو أملك حرية اختيار نهاية ترضيني.

«يا شيخ.. يا شيخ» جاءني السجين مسؤول عنبر الطيران مسرعاً، فالتفت إليه وأبديت بلادتي: «ماذا تريد؟» سار بي إلى العنبر طالباً مني القدوم إلى السجناء لرغبتهم بالاعتذار مني على ما حصل. وفور دخولي بدت لي وجوههم منطفئة من أي تعبير. خرج من بينهم الديناصور، فقال لي بنبرة أسف:

- أرجو منك أن تقبل الدخول للاعتذار منك ومصافحتك.

قلت ساخراً:

- لا عليكم.. هل تشعرون بالظمأ؟

نظروا إلى بعضهم. ضحك الديناصور واتبعوه ضحكاً. قال:

- لا.. نحتاج للاعتذار منك على..

قاطعه المسؤول وهو يقول لخالد بلطف:

- ادخل.. ادخل

سار نحوي الديناصور يمد يده ليصافحني، وجاء من ورائه الآخرون. صافحت الديناصور وقام بشدي إليه ليضمني، فشد على جسدي بذراعيه، وأحاط بي الجميع، فتوالت عليّ الضربات من كل اتجاه، صرخت: «ابتعدوا» فازداد الضرب، وأعليت صوتي بالصراخ مستنجداً: «سامي.. يا شرطة.. «كمم فمي أحدهم وأخذ يلكمني آخر على أنفي، ففقدت الوعي. لم أشعر بنفسي إلا وأنا أُجر من قدمي خارج العنبر. ملقى على الأرض أنظر إلى وجه المسؤول أمامي، وعقبه الديناصور وهو يقول: «درس لن تنساه»، وفرا من أمامي فجأة. سمعت أصوات خطوات قادمة، كان سامي، نظر إليّ بذعر وهو يقول: «أيها الأوغاد، ماذا فعلتم به!» بعد دقائق حُملت على أكتاف أفراد الشرطة، سمعت صوت الضابط الذي قابلته وهو يأمر بصوت عال: «أبلغوا مكافحة الشغب الآن» ساروا بي إلى مبنى الخدمات الطبية، وأنا محمول على الأكتاف، سمعت خطوات تدك البلاط بانتظام، وبضربات موحدة، حاولت الالتفات باحثاً عنها، فوجدت أفراد مكافحة الشغب يتوجهون إلى عنبر الطيران، حاملين العصي والدروع، وفور عبورهم من على يميني، وقع نظري على العنبر خلفهم، هناك رأيت رجلاً

يقف على باب العنبر ممسكاً بكتاب وهو يشاهدهم.. حاولت النهوض بظهري لأراه بوضوح. لم أستطع.. قارئ في فريج التمويل.. لم أفت من الباب حتى سمعت صيحات خارجة من عنبر الطيران. بدأ عمل مكافحة الشغب.

4

يقف خالد أمام المرآة. هالات زرقاء داكنة تحيط بعينيه المتورمتين، ودم جاف أسفل أنفه وجرح يعتلي شفتيه، بملابس ممزقة ملطخة بالدماء، يقف يائساً كدمية انتهى دورها في اللعب.

هذا الذي أقف أمامه ليس اختياري. لم يكن حالي هذا نتيجة لتلقي الأوامر، كان من أجل الحصول على إجابة عما يُدار حولي.. على الرغم من أنني طوال انصياعي للأوامر ومشاركتي الخسيسة في تغذية الفساد، لكن لم ينته بي الحال بهذه البشاعة التي أراها أمامي الآن في المرآة.. بهذا الوجه المحطم المثير للشفقة.. تجتاحني رغبة في الانتقام من نفسي، لقد أبخست من قيمة وجودها في هذه الحياة..

ماذا أريد؟ سؤال يعبث فيّ كلما نظرت إلى وجهي في المرآة أو حينما أكون وحدي أو حينما ألقي برأسي على الوسادة متوسلاً النوم لزيارتي. سؤال أفشل في الإجابة عنه. أخذت الحياة بيدي إلى الهاوية.. لم أملك سلطة اختيار الحياة لكي أرفض ما أنا فيه.. لم يكن لي أي شأن، وإرادتي ليست بتلك القوة لأجيب عن سؤال كهذا.. هذه اللحية لم تكن اختياري، وهذه البدلة التي أرتديها أيضاً، وهذا الرأس الذي يضعف أمام سؤال تافه حتماً ليس هو رأسي..

5

أمر مقبول أن أحصل على إجازة لمدة شهر مقابل أن أُضرب من مجموعة مخمورين. إنها من نتائج أداء الواجب بإخلاص حسب نظامهم وقوانينهم وإنسانيتهم التي كشفت عن حالها الرث!

قضيت يومين في المنزل بلا عمل يذكر، فقط أستلقي على الأريكة أو أتناول الطعام أو أجالس أختي مرزوقة. وفي يومي الثالث الذي قضيته في مكتبتي، خطف نظري كتاب ملقى على الرف. [من أنت!] عنوان كتاب قد منعني من قراءته عوض في بداية معرفتي به. كان يذمه كثيراً، ويرى بأن صاحبه ضال. عزمت على قراءة الكتاب حتى انتهيت منه، ووجدته كتاباً جيداً يحتوي على موضوعات وأفكار لم أسمعها من عوض أو رفاقه، ولم أرها في تعاملهم طيلة رفقتي بهم. أن أفهم نفسي بدلاً من الاتباع، هذا جزء صغير مما تعلمته من الكتاب.

عملت على حمل الكتاب، وبعض الكراريس التي كتبت فيها ملاحظاتي وآرائي حول موضوعاته، مقارناً بها أفكار عوض ورفاقه، وبما كان عليه حالي طيلة الفترة الماضية، مقرراً بأنه حان الوقت لمجالسة عوض ومناقشته.

وبعد يومين عقب صلاة العشاء في المسجد، رأيت عوض في الصفوف الأولى التي يحتلها كعادته هو ورفاقه، عدت إلى الوراء باحثاً عن إحدى الزوايا لتكون مكاناً لي وبالقرب من

باب الخروج، كنت أفكر ملياً كيف سألتقي بعوض لأول مرة بعد عام من توديعي له قبل دخولي الدورة التدريبية. وكيف سينتهي اللقاء وفي يدي كتاب لا يراه نافعاً. قررت أن أفتح إحدى الكراريس وأضع الكتاب على الأرض مبيناً عنوانه، متظاهراً بالقراءة حتى يعبر عوض وهو خارج فيراني، فأكون قد حللت مشكلة بدء اللقاء.

- لماذا هذا الكتاب هنا؟

رفعت رأسي. رأيت وجهه الغاضب دون ترحيب بابتسامة. علمت أنه متحامل عليّ لابتعادي ثم إعادتي الكرة، ألقيت وجهي في الكراسة مرة أخرى.

اشتد غضبه، ومد يده يخطف الكتاب وهو يقول:

- أنا الشيخ عوض محمد الذي أرشدك إلى الهدى والصلاح، وتعود بعد عام بكتاب ضال!

قلت له بهدوء:

- ما الذي يغضبك في هذا الكتاب؟

- ألم أمنعك من قراءته! هذه الكتب لا تجدي نفعاً.. أصحابها ضالون.

أبديت استغرابي محافظاً على هدوئي:

- ولكن أنا في حاجة لأكتشف ذلك بنفسي.

صرخ في وجهي:

- أنت ضال.. تجهل نفسك.

اجتمع رفاقه من حوله وهم ينظرون إليّ بازدراء. نهضت غاضباً أمامه، وخطفت من يده الكتاب، وأنا أقول:

- أنت تهرب من الحديث معي في حضرة هذا الكتاب.

عبس وجهه، وقال:

- أنت جاهل ولا أواجه الجهل إلا بالتجاهل.

- لأنك ضعيف.

ابتسم ومد يده يمسك بلحيتي:

- احترم هذه قليلاً يا شيخ.

رفعت يده عني وقلت:

- لم أعد شيخاً، لأنني لم أختر ذلك حتى أستمر عليه.

ضحك وقال:

- يبدو من حالك أنك انغمست في الضلال حقاً.. هداك الله.

سرت إلى الباب، وتوقفت أنظر إلى الكراريس، فقلت وأنا أشير إليها:

- هناك ما يجب عليك قراءته.

قال وهو يعلو من صوته:

- مصيرها النار.

قال أحد رفاقه:

- اخرج.. اخرج، الضلال لا تعرفه بيوت الله..

نجحت في كشف حقيقة عوض بلا نقاش معه، هذا الضلال الذي يتحدث عنه كان متجسداً أمامي، عوض استطاع أن يمتلك السلطة على رفاقه الذين يتبعونه دون محاولة لفهم ما هم عليه. الجميع ضالون في نظرهم، ما عدا من يتّبعهم ويعمل على نهجهم.

وعلى الرغم من أنني نجحت في التخلص من عوض بطريقة قام بتسهيلها عليّ كثيراً، إلا أن الشعور بالحزن انتابني، هذا العام من عمري عبر بلا شعور بنفسي، كنت غائباً عنها، ما جعلني أسلك طريقاً ليس باختياري، كان باختيار الآخرين، أنا رهن سلطتهم، أوامرهم، تأثيرهم، عبثهم في رأسي، لم أخط خطوة وأنا أعيها تماماً.. هذا الغباء ينهش حياتي بشراسة..

الإيمان والإسلام والاستقامة، تلك الأمور التي تتحدث عنها كتب عوض ومشايخه، لم أرها فيه إطلاقاً حتى أعطي نفسي الحق للبحث عنها في مدرسة الشرطة ومقر العمل.. لم أجد الإسلام حتى في نفسي. مات الشيخ فيّ بسهولة، كان مظهراً، بعض من الشعر يخرج من ذقني فقط.. انتهى ما مررت به طوال العام على ضرب دفعني إلى الحاجة بأن أعرف أين أسير في هذه الحياة، وأن أكتشف ذلك بنفسي.. أمر يدعو للسخرية .. للبكاء، لشيء لم أعهده طيلة حياة أبي!

6

عاد خالد يقف أمام المرآة، كان ينظر إلى وجهه وكأنه يراه لآخر مرة. «وداعًا أو إلى لقاء.. لا أدري إن كنت سألتقي بك مرة أخرى أم لا..» أخذ يحلق ذقنه بشراهة. عاد بعد الانتهاء ينظر إلى وجهه مبتسماً: «عاد ذاك الإنجليزي يا أبي» ضحك بصوت عال حتى احمر وجهه. فصمت: «أنا صغير، لا أملك كرسياً..»

«أين تختبئ السلطة؟» يردد خالد. كان كثير الجلوس في المكتبة، يقرأ ما يريد من الكتب دون أن يثير عوض ضجة في رأسه. كان منهمكاً في كتابة ما عليه فعله في أيامه القادمة، ويملأ صفحات الكراريس بالأسئلة التي يعجز عن الإجابة عنها. قضى خالد قرابة الشهر وهو على تلك الحالة التي يرى فيها عودته إلى نفسه وعلى قرب منها أكثر مما سبق، محاولاً أن يعبئ ذاته بالثقة. تقتحمه رغبة الانتقام غالباً، يعقد التفكير على البحث عن السلطة التي تخرجه من هذا الضعف الذي يقضي على حياته ببطء.. كان يبحث عن الأمل لقضاء بقية عمره بإرادة تجعله راضياً عن حاله بأي طريقة كانت، مالكاً الوعي ليرى به العالم بوضوح متحكماً وحده فقط في مجريات حياته. بقي خالد طوال الشهر يبحث عن طريقة لتحقيق آماله، وأصبح مستعداً لمواجهة العودة إلى الحياة بطريقة تدعو للعناق بقوة، وهي المواجهة التي يراها عودة للتجربة إما أن ينجح في الخروج منها مثبتاً لنفسه قدرته على تغيير مسار حياته أو البقاء على ما هو عليه ويقضي بقية عمره منجرفاً حيثما أراد العالم منصاعاً للأوامر.

7

الأضواء خافتة، والهدوء يعم المكان بحضور صوت خطوات مليئة بالثقة. صرخ خالد بقوة: «أيها الحمقى.» انفجر الصدى. كان خالد يسير في الممر الذي ينتصف العنابر أثناء مناوبته. خرج بعض السجناء من وراء القضبان ينظرون إليه. أخذ يردد: «أيها الحمقى..» وصل إلى نهاية الممر، صاح سامي في أوله: «ما خطبك يا خالد؟» التفت بسرعة وهو يقول رافعاً ذراعيه للأعلى: «لا شيء، سأجتمع مع الحمقى قليلاً..» ضحك سامي وهو يقول: «والله إنك تغيرت يا خالد.. استمتع..» انصرف سامي وبقي خالد في نهاية الممر يجر من خلفه كرسياً. وضعه في المنتصف.

جلس، شعر بأنه يملك المكان بما فيه. ساق على الأخرى، ببدلة شرطي نظيفة تفوح منها رائحة عطر زكية، وأحذية سوداء لامعة. وضع سيجارة بين شفتيه وهو يقول: «حان وقت الكرسي..» نظر إلى العنابر بصمت. لم يكن يعرف كيف يأخذ نفساً من الدخان، فتظاهر بنفثه إلى الأعلى..

هل تعلمون لماذا أنتم هنا؟ نسيت.. نسيت.. أعتذر.. أنتم حمقى لا تعلمون حتماً.. سأخبركم إذن.. هذا السجن من أجل أن يحمي العالم من شروركم، ولكنه لم ينجح في ذلك، لسبب منطقي جداً، لأن الذباب لا يمكن أن يُسجن عندما يؤذينا، بل يُصنع له فخ الموت، أو بمضرب يباغته وينهي أجله. سأصنع الفخاخ في كل مكان، وسأصطحب الموت في نزهة إلى أماكنكم، ومن يقترب مني سيصلي عليه السجناء. مفهوم!

كان خالد يتحدث بصوت عال وهو يسترجع طريقة المدرب بخيت عندما كان يتحدث معهم أثناء التدريب. عاد يردد: «مفهوم.. مفهوم» لم يجب عليه سوى القليل جداً، ما أثار غضبه، فنهض متوجهاً إلى عنبر الطيران. وقف في وجهه مسؤولهم. لكمه خالد على صدره، وشده من ثوبه صارخاً في وجهه: «افتح الباب..» راح المسؤول يكتب في دفتر الأحوال، ركل خالد الطاولة وأخذ الدفتر من على الأرض، ورماه في وجه المسؤول وهو يقول: «أنت تختار الموت..» تراجع المسؤول إلى الوراء، ودخل خالد إلى العنبر وهو يبحث عن الديناصور، فوجده في السرير الأخير، ركض خالد نحوه وقام بضربه حتى كَل متنه من شدة دفاع الديناصور عن نفسه وحماية وجهه من اللكمات. كان يضرب وهو يقول: «ستموت أيها الذبابة..» حاول السجناء الإمساك بخالد، فأوقفوه دون إيذائه، ساعين إلى تهدئته.

خرج خالد من العنبر عائداً إلى غرفة المناوبين وهو ينفض قميصه. توقف في منتصف الممر متذكراً القارئ، عاد بخطواته إلى عنبر التمويل، وطلب من مسؤوله فتح الباب، وكتابة حركة الدخول، فلما وطئت قدمه العنبر، ظهر في وجهه ذاك الفيل وهو يقول: «الساعة المباركة، حمدلله على السلامة يا شيخ» حاول خالد دفعه إلى الوراء وهو يقول: «لم أعد شيخاً». أخذ يفتش في وجوه المسجونين باحثاً عن القارئ، فلم يستطع التعرف عليه. أمرهم بالنهوض. نهضوا وعاد يفتش عن أي شيء يدل على وجود قارئ في هذا المكان العفن.. انزعج صارخاً: «أين القارئ أيها الذباب..» ذعر قزم

كان يقف بجواره، انتبه إليه خالد، شده من قميصه يقربه إلى وجهه، همس: «هل رأيت قارئاً من قبل؟» قال القزم: «خرج إلى العيادة قبل قليل ولم يعد».

دفع خالد باب العنبر بقدمه مغادراً إلى غرفة المناوبة. «للتو تعرفت على رجل جديد.. إنه غريب» يخاطب نفسه وهو يسير متعجباً من نفسه كيف أقدم على فعل كل ذلك أمام مرأى جميع السجناء دون تفكير!

8

[العدل في سير الموتى] عنوان رائع يا سيد خليل» قال خالد. أصلع، وعلى جنبي رأسه ينبت الشعر المجعد، بعينين واسعتين، وشارب عريض يخالطه الشيب. يسير بجسد ممتلئ قليلاً على استقامة الخطوات، ويتحدث بنبرة مترددة دائماً، وكأنه يعقد صفقة قلقة بين رأسه ولسانه قبل التفوّه بكلمة. خليل رجل كويتي يبلغ الأربعين من عمره، أب لأسرة صغيرة وحاله ميسور، كان يعمل على سيارة أجرة، بجانب العمل في مكتبة صغيرة. قارئ نهم. فرح خالد بلقائه. كانت قضيته المشاركة في جريمة سرقة.

- القارئ يتعرض إلى التنمّر يا خالد، ولا يحق له القراءة في كل وقت، ولا يسمح له بطلب كتاب يرغب في قراءته.
- هذا السجن اللعين بحاجة إلى تدمير.

ابتسم، فقال:

- ليس بهذه الطري..

قاطعه خالد، يسأل:

- لماذا أنت في فريج التمويل؟

صمت خليل بلا إجابة. قال خالد:

- ألا تسمعني يا سيد خليل!.. هل سرقت كتباً؟

ضحك، وصمت فجأة ثم قال:

- ربما القارئ لا يسرق.

أصر خالد على معرفة قصته، مزدحماً بالفضول، قال:

- أنا في حاجة إلى التحدث مع قارئ.

قال خليل بعد صمت طويل:

- مات صاحب المكتبة التي أعمل فيها، وتولى شأنها ابنه الوحيد، وبقيت على عملي دون الحصول على مستحقاتي الشهرية، وظللت أعمل وفاء للمكتبة وصاحبها الذي تمتد معرفتي به عشرين سنة.. طلبت مستحقاتي من ابنه وأمرني بتصوير الكتب وتغليفها، وبيعها على أنها نسخ أصلية لتعويض خسارته التي توالت عليه لأكثر من ثلاثة أشهر مقابل الحصول على مستحقاتي، ولكنني رفضت بحزم.. ذات يوم قام عامل آسيوي بسرقة خزينة أمواله في مكتبه الخاص في السوق القديم، فانتهز الفرصة واتهمني كشريك في الجريمة ليتخلص من عبء الدين.. لم يكن قارئاً أصلاً، بل لصاً من أصحاب الطبقة العليا وصاحب شركات كثيرة. أبوه لم يكن كذلك..

عقد خالد حاجبيه:

- تبدو قصة معقدة.

- لا يهم.. لا أرغب في الحديث عنها.. بقي على خروجي من هنا بضعة أشهر.

سار معه خالد حتى أدخله العنبر، وهمس له:

- اطلب ما أردت من الكتب وسأوفرها لك.

التفت خليل إليه وابتسم. نظر خالد إلى السجناء في العنبر، وقال لمسؤولهم بحدة:

- سأطبق عليكم العنبر إن اقترب أحد من السيد خليل.

نقل سامي لخالد ما حصل أثناء فترة إجازته، وأن جولات التفتيش ازدادت كل يوم، وتم محاسبة الكثير من أفراد الشرطة والضباط واستبعادهم لمشاركتهم في عمليات التهريب، ولم ينج ممن يعرفهم خالد سوى ياسر فقط. وهذا قرار من وزارة الداخلية في الشهر الماضي الذي أربك الجميع هنا. «لقد نجوت بأعجوبة أنا أيضاً» قال سامي. «هذا ما جعل السجناء في حالة ذعر مني ليلة البارحة!» يخاطب خالد نفسه.

«كل أوامرك سيتم تنفيذها بشرط أن يكون لي نصيب منها، وإلا سأثير الفوضى.. ما رأيك في قرار وزارة الداخلية الجديد!» قال خالد لياسر وهو يقف معه خارج غرفة المناوبة. لم يكن

ياسر مطمئناً لطلب خالد بعد أن علم بكل ما دار في السجن وتهديده بإثارة الفوضى والشغب، حتى لحيته تلك التي كانت أماناً له اختفت تماماً. حاول ياسر أن يقترب من خالد ليثق به، وأوكل إليه مهمات تهريب عديدة مقابل الحصول على الأموال.

وفي أول مهمة وضع خالد الخمور في منتصف الليل فوق صندوق الكهرباء، متوارياً خلف الحائط. جاء الديناصور كالعادة بسلة ملابسه المسنودة على خصره، هذه المرة ظهر ارتعاش أطراف الديناصور خوفاً، وحين بدأ بتعبئة السلة، ظهر خالد فجأة وهو يضحك قائلاً: «إنه فخ أيها الذبابة وتم ضبطك..» فزع الديناصور رامياً السلة أمامه هارباً إلى العنبر. جرى خالد خلفه حتى دخل معه العنبر. قال له:

- تعال، لن أؤذيك..

كان الديناصور يحاول إخفاء نفسه في فراشه مخبئاً رأسه، فقال من وراء الغطاء:

- ماذا تريد مني؟

صرخ خالد:

- انهض..

سار به خالد إلى خارج العنبر:

- اسمع، لن أؤذيك هذه المرة، وفي كل مرة، وما عليك سوى أن تزيد من الأموال دون علم أحد.

قال الديناصور بخوف:

- سأخبر ياسر فقط.

قال خالد وهو يبتسم:

- سأنهي أمركما..

لن أكون صالحاً للعيش بدون سلطة. كنت أنهر ضميري في كل مرة حتى ولّى هارباً مني. عملت على التهريب لمدة ستة أشهر بلا أذى وجنيت الكثير من الأموال. أصبحت مكانتي في السجن تعلو مكانة أي شرطي يعمل فيه، مهدداً الضباط بكشف فسادهم. نعم سأفتقد الحياة، لو لم أتقاسمها مع الجميع بأي طريقة كانت، فليس للإصلاح سلطة. عاجز ذليل هذا الذي يواجه العالم بمفرده. السلطة للكبار فقط، وهذا الإصلاح كهل عاجز عن التنفس.

كان خالد متردداً بسيره في طريقه الجديد بداية الأمر، وعانى من صراع نفسي شرس، ولكنه وجد لذة التمتع بالسلطة. هذا الشيء الهزيل في نفسه أصبح غولاً في مكانة الآمر مسيطراً على كل ما يعترض طريقه.

9

غشاوة أمامه، وأضواء بلون الأحمر والأخضر يملؤها الضباب، وسبابته تترنّح أمامه محاولاً أن يشير إلى الأضواء فاقداً السيطرة عليها. «هذا الإصبع لا يخضع إلى أوامري» قال خالد وهو يضحك حتى سال لعابه وهو جالس بجسده المنهار على الأريكة. أسند يده على ركبته يحاول النهوض. سقط على الأرض قبل استقامة ظهره، نظر إلى السقف الذي يضج بالأضواء الملوّنة، مستمعاً إلى الأغاني الصاخبة. مر من فوقه ياسر كالظلال وهو يحمل كأسه، فقال له: «هل ثملت يا خالد؟»

تسارعت ضربات قلبه وصرخ يستنجد من ضيق التنفس. قال ياسر: «يا حيوانة، ساعديني.» غاب خالد عن الوعي. أفاقه ياسر في الصباح الباكر. قام بارتداء بدلته ذاهباً إلى عمله.

اقترب ياسر من خالد في الفترة الأخيرة من عملهم سوياً وأصبحا لا يفارقان بعضهما في العمل وخارجه. غرق خالد في شرب الخمر برفقة ياسر وأصحابه، ولم يترك شيئاً إلا وتناوله محاولاً الهروب مجدداً من ضميره الذي عاود إيذاءه. خمور، حبوب هلوسة، نساء، قمار، كانوا يجتمعون في إحدى الشقق التي يتم تأجيرها شهرياً، في كل نهاية أسبوع.

«لم يتبق لي سوى اللهو في هذه الحياة» قال خالد في أول يوم وطئت قدمه تلك الشقة وهو ينظر إلى زجاجات الخمور والنساء. استمر على هذا الحال قرابة الأربعة أشهر كارهاً الوقت الذي يغيب فيه ياسر عنه. يهرب خالد دائماً من الجلوس بمفرده وإن كان في المنزل الذي لم يعد ينام فيه إلا نادراً، يجالس أخته مرزوقة التي بات الشيب يعانق شعرها، وفي العمل يقضي وقته في التهريب أو مجالسة بعض زملائه.

«كل عام وأنت بخير يا خالد» قال رفاقه بصوت واحد في الشقة الساعة الثانية عشرة وهم يحتفلون بيوم ميلاده، يوم الاثنين من شهر نوفمبر عام 1996م. كان احتفالاً راقصاً، طفحت الشقة بالنساء وزجاجات الخمور وحبوب الهلوسة والحشيش. لهو ولامبالاة بالوقت.

قال خالد وهو يقرع كأسه بكأس ياسر:

- سنعقد صفقة جديدة احتفالاً بيوم ميلادي المجيد.

ترنح قليلاً، واقترب يهمس في أذن خالد:

- سأزيد من عمليات التهريب للمساجين والضباط والقادة والشعب أيضاً.. ولكن بضعف المبلغ.

نظر ياسر إلى خالد نظرة ازدراء، فقال:

- من تظن نفسك أيها السكير!

ضحك خالد وقال:

- أنا خالد الذي جعلك تحت إمرته، وبات الضباط يرتعشون خوفاً منه.

- اسمع.. أنت الآن ثمل ولن أتفاوض معك.

صرخ خالد فجأة وقال:

- بل الآن!

انزعج ياسر. دفع بخالد إلى الخلف وهو يقول:

- سأحطم رأسك إن لم تكف عن الهراء.

صمت خالد وهو يترنح مكانه. سقط بظهره على الأريكة جالساً. ظل يشرب من الخمر حتى كادت معدته تحترق، ينظر إلى النساء والرجال يرقصون حوله، أخذ يرفع يديه بصعوبة ليصفق وهو يضحك، سقطت يداه الثقيلتان، ومسح لعابه السائل بأكمامه. يحدق بأجساد النساء التي باتت تختفي. قرع الكؤوس يتوالى على مسامعه، أغمض عينيه، الظلام أمامه

في كل مكان. ما زال قرع الكؤوس يتوالى.. عاد به صوت الكؤوس إلى صوت النجر، تسارعت ضربات قلبه.
ابتسم يقول: «إنه ميّت» صوت أبيه يتردد في رأسه: «ماذا تريد أن تصبح حين تكبر؟» عادت ذاكرته بالزمن تبعث له صور ذكرياته.. دق النجر.. ضحكة أبيه.. رقصة العرضة.. توسله للمعلم..فتح عينيه ببطء وأخذ يردد بصوت مرتعش: «إنه ميت» نظر إلى أسفله، وجد نفسه يتبوّل لا إرادياً، ضحك بقوة حتى بهت الضحك. لطم على وجهه غاضباً، وبكى بشدة ولم يلتفت إليه أحد.

أنزل ياسر خالد أمام منزله بسرعة قبل طلوع الفجر. كان خالد يترنح وهو يدخل الباب. توقف ينظر إلى مجلس أبيه. بكى.

في اليوم التالي أمام غرفة المناوبة، قال خالد:

- لن أقوم بتهريب شيء.

قال ياسر وهو يبتسم:

- أما زلت ثملاً يا رجل؟

همس إليه:

- بل سيكون ذلك مقابل ضعف المبلغ وإلا سأريك خالد لم تعرفه من قبل.

غادر خالد مكانه. شعر ياسر بأنه لم يعد مسيطراً عليه وأنه يزيد من عبئه وعليه مجاراته. راح يركض خلفه وهو يقول:

- سأعطيك ما تريد.. أنت صديقي.

توقف خالد ملتفتاً إلى ياسر يرفع علامة النصر في وجهه مبتسماً.

قبل دخول العام الجديد بيومين، أوكل ياسر لخالد مهمة كبيرة في تهريب عبوات من الخمور والحشيش، ليضعها هذه المرة تحت غطاء مخرج المجاري بالقرب من دورات المياه، ويحصل على مبالغ ضخمة فور الانتهاء منها، وأبلغه بأن هذه المهمة تابعة لقادة كبار في الدولة وعليه الاهتمام بها. تم الاتفاق على أن موعد التهريب سيكون في تاريخ 31 ديسمبر الساعة الواحدة بعد منتصف الليل استعداداً للاحتفال برأس السنة الجديدة.

كان خالد يستعد لموعد التهريب. راح يتفقد السجن، كان هادئاً، ورأى خليل يجلس ممسكاً بكتابه يقرأ. «هل أنت على ما يرام؟» ابتسم خليل يجيب: «أنا بخير، انتظر سأعطيك شيئاً». أكمل خالد تفقده السجن بعد أن أخذ من خليل ورقة دوّن عليها عنوان منزله على أمل أن يلتقيا بعد خروجه الذي بات وشيكاً.

قام خالد بوضع الممنوعات تحت نوافذ دورات المياه من الخارج ليسهل عليه حمل كمياتها الكبيرة وإدخالها عبرها بحيث يكون مخرج المجاري قريباً منه. بدأ بالعمل الساعة الثانية عشرة منتصف الليل، حتى يفرغ من التحميل قبل الموعد المحدد. بعد قضاء ساعة تقريباً، توارى خالد خلف عمود حديدي ليتعرف على السجناء التابعين للقادة الكبار، ويعقد معهم صفقة جديدة فاخرة بعيداً عن ياسر.

بعد دقائق ظهرت مجموعة من السجناء قادمين من بعيد، لم يشاهدهم خالد من قبل وبدت عليهم النظافة. دار في خلده أنهم من عنبر أمن الدولة، فهو العنبر الوحيد الذي لم يدخله قط. اقتربوا من مخرج المجاري. انحنى أحدهم وهو يمسك

بسيجارته رافعاً غطاء المخرج، ألقى نظرة فيه ثم أقفله. أخذ البقية يتفقدون المكان. اقترب أحدهم من خالد، وتوقف مكانه مستعداً للعودة إلى الخلف بعد أن أمره زميله: «تعال من هنا..» رأى في طريقة تفقدهم ما يشبه البحث عن مخرج.

كان واحد منهم بحجم الدب الأمريكي، هذا الذي أثار الرعب في خالد، وكانت حركته أشبه بالذي يتربص منتظراً خروج فريسته من مخبئها. بينما كان خالد ينظر إليه ملتفتاً إلى يساره،رفع يده يهش من على وجهه مخاطباً نفسه: «ليس الآن أيها الذباب..» سمع صوت خطوات قادمة من على يمينه تقترب، وفور التفاته باحثاً عن مصدر الصوت، وقعت قبضة أحدهم على كتفه تشده إلى الخلف. سقط خالد. «ها هو..» قال الذي أسقطه. نهض خالد بسرعة، رأى الدب يجري نحوه، فتأهب لحدوث معركة معه. توقف الدب وقال بحدة: «هل أنت من أتى بالخمور؟» قال خالد وهو يقبض على كفه بشدة: «نعم.. ماذا تريد يا ذبابة؟» سقط خالد أرضاً بعد أن ضربه الرجل من خلفه وألقى بجسده عليه، حاول خالد النهوض دون جدوى. نهض الدب بخالد وهو يقول له: «لقد قبضنا عليك أيها السافل». يردد خالد بذعر: «من أنتم..؟» قال الدب مبتسماً: «عمامك ضباط التفتيش» صعق خالد. صرخ حتى ظهرت عروقه في عنقه وجحظت عيناه: «ياسر.. الخائن». كان الضباط يقيّدونه بأيديهم وهو ينفض بجسده محاولاً الفرار. اقتادوه إلى الخارج على مرأى السجناء.

10

الذي تعلمته هذه المرة أفقدني نفسي. نعم أخطأت الطريق وبدوت كالطفل الذي أضاع من يده حلوى كان يفكر كيف يتناولها متلذذاً بسرقتها. هذه المرة كان اختياري أن أسلك طريقاً لم أعرف بأن نهايته ستغرقني بالقذارة. هربت من مواجهة الضمير، هذا الذي لا يكف عن ملاحقتي في كل مكان، لم أكن أعلم بأنني في حاجته يقظاً فيّ دائماً.. أخذتني حرية الاختيار إلى الانصياع لإطعام الفساد، وضخ الدماء في شرايينه، ليكبر، ويكبر.. هذا الفساد ابن عاق.

شعرت بلذة السلطة التي اخترت امتلاكها.. كان اختياري يناسب هذا العالم البشع الذي لم يكن قادراً على منحي الاستقلال، بحثت عني حراً ولم أجدني، ما كان لي طريق آخر، لا بد من العبودية في هذه الحياة.. أريد العيش بسلام دون أن يعترض طريقي أحد أو يملكني أحد متحرراً من هذا الخنوع.. لا أدري.. أن تمتلك سلطة يعني أن تكون فاسداً.. أو ربما أنا من أخطأت واخترت سلطة فاسدة!

كان الكتاب يخاطبني، حينها وجدت القدرة على تخلصي مما كنت فيه من خنوع وأتولى قيادة نفسي بنفسي دون تدخل من أحد. [من أنت!] هذا الكتاب الذي غادر بسرعة لم يحمل تلك القوة الدائمة التي تجعله يرافقني في هذا العالم.كتاب لا يعرف من هو حتى أبحث فيه عن معرفتي بنفسي، كتاب يدعو إلى التحرر من الاتباع، ويعمل عليه.. مثير للسخرية.

كيف تتخلص من الاتباع، هي فكرة صعبة للغاية، وما جاء به الكتاب من موضوعات لا يناسب عالمي إطلاقاً، ولأكون أكثر وضوحاً، كانت تلك العبارات فيه تمدني بجرعات قوة، وسرعان ما انتهى مفعولها في أول خطوة أقدمت عليها.. عوض سهّل علي مهمة التخلص منه، لم تكن بفعل قوة أمتلكها، وأشك بأنه كان قادراً على نقض ما حملته إليه، فسلطة عوض هي التي ينال بها قوة لا تموت،هو قادر على سيطرته الدائمة طالما بقيت برفقته، فرأسي يكون عاجزاً عن التنفس بحرية!

كن قوياً، ابحث في داخلك عن أجوبة، تخلص من الاتباع، الحرية حق مشروع لكل إنسان، السلطة في الجماعات، الوحدة ضعف، لا تضع الفرصة، قرر الآن.. كل تلك الموضوعات التي جاء بها الكتاب لا تلد فكرة واضحة، نعم لم أطبق منها الكثير، ولكنني وجدت نفسي أعمل على عكسها، كتلك السلطة التي تمتلكها الجماعات لم أجد فيها ما يؤيدها في الواقع، لأنها تمتزج بالاتباع بالضرورة، فليس من الممكن أن تكون المجموعة سائبة بدون قائد يرشدهم ويوجههم حتى تستفحل سلطته وتصبح خالصة له. الدين قوة ساحرة لا يمكن أن أنكر تأثيرها عليّ فيما مضى، كان تأثير لا يعبر عن الإسلام حتماً. أن أكون فرداً من جماعة، يعني أن يزحف بي القدر إلى الضعف، مقيّداً غير مستقل إطلاقاً، وفور اعتراضي على أمر جماعتي حتماً سأعزل، وأكون أكثر ضعفاً.

أما البحث عن أجوبة، فقد وجدتني أبحث عن الأسئلة بدلاً منها، ولا أستطيع الإجابة عنها دون اللجوء إلى العالم الخارجي، عالم عليّ أن أغوص فيه وأرى الناس وما هي طرق تفكيرهم وأساليبهم التي امتلأت بالضباب. ظهرت لي أفكارهم مع كل إشراقة فكرة في رأسي بأنها غير مجدية ومتناقضة، فأعزم على تشريحها حتى علقت في أنفي رائحتها الفاسدة، الفاسدون يقرون بذلك، كما أخبرني علي ذات يوم، بأن العالم ينهشه الفساد، ولا بد أن يأخذ نصيبه منك..

حين سنحت لي الفرصة أن أكون حراً في اختياري، اخترت الحرية واستمتعت بنشوتها، هذه التي لم أمتلكها في صغري، ومنحني إياها أبي أمام كبار السن فقط، ولو أنه لم يكن يسندني في حضوره لكنت أنا فريسة سهلة لسلطتهم التي لو كانت قادرة على النيل مني لأصبحت بين أيديهم كصلصال وأنا صنيعهم في هذه اللحظة.

كان شعوراً جميلاً أن أنال الحرية بلا إرهاق في التفكير وإطالة في البحث عن أجوبة محاولاً الوصول إلى النجاة، كانت لحظات تعبر أمامي بسرعة مذهلة مليئة بالأضواء التي أسرتني بجمالها، فأخذت أقبض عليها واحدة تلو الأخرى، كان ذلك الدرس هو «لا تضع الفرصة، قرر الآن».. ولكن واقعي مختلف عما يهذي به كتاب يحاول أن يعلمني من أنا! فانجرفت بلاشعور إلى مكان قبيح، لذته في لحظته فقط، لحظة كنت أبحث فيها عن فرصة لأعيشها بلا ندم على رحيلها، حتى وجدتني في ذاك المكان داخل جماعة تعشق الواقع وفي يدي سلطة، ياسر ورفاقه هم جانب كبير من هذا الواقع، فما بالي

بالسجناء وضباط السجن وغيرهم الكثير ممن يعيشون على الفساد وإطعامه. هذا الواقع مظلم قذر لا أعرف فيه من أنا، إنه هاوية. ويبدو أن اللحظات النقيّة التي كانت توقف الزمن من أجل الاستمتاع بها، أصبحت للأطفال فقط..

كان السيد خليل ينقل لي أفكاره، ويبحث معي عن إجابة لسؤال أرهقه طوال فترة قضائه في السجن. «كيف يكون الإنسان صالحاً إن لم يوافقه العالم؟» لم أجب خليل، وشعرت في ورطة مع هذا الرأس الذي أحمله، ضعيف دائماً.. ولكن يبدو لي أن يكون الإنسان صالحاً ما هو إلا حلم نتغنى به..

اضطر خليل للعمل في السجن وبيع بعض الأدوات والاحتياجات، وأيضاً في كي ملابس السجناء مقابل أموال يعين بها أسرته الفقيرة التي تفتقده. حتى سار به العمل إلى ضرورة تهريب الممنوعات، فهي التي كان تداولها أكثر من أي شيء آخر. هذا ما أخبرني به سامي أثناء زيارته لي في السجن العسكري. أين أنت الآن يا خليل، لأمنحك جواباً عن سؤالك.. كيف أحلّق في السماء؟ إنه حلم..

يقف خالد أمام المرآة، مرتدياً بشت أبيه، وفي يده عصاه، مخاطباً نفسه: «أين أنت يا أبي! وحدك من كان يمنحني السلطة..»

خرج خالد من السجن العسكري بعد ثلاثة أشهر بتهمة تهريب الممنوعات داخل السجن المركزي والخروج عن القوانين. تم استرحامه من عقوبة الفصل بمعاونة أخيه حامد وتدخل الواسطة، وساعد في ذلك كثيراً مكانة الشهيد أخيه عادل، ليتم نقله إلى أحد المخافر بدلاً من ذلك. لم يباشر خالد عمله في المقر الجديد، وظل غائباً عنه حتى تم إصدار فصله بعد ستين يوماً من غيابه، وبمعاونة بعض زملائه نجح خالد في التخلص من وظيفته، وبقي في المنزل منعزلاً عن العالم.

الفصل الثالث

2001-2002

1

«كل عام وأنت بخير يا خالدي» عادت الروح إلى جسد الحياة عندما قالت سلمى هذه الجملة في أول يوم من عمري الرابع والثلاثين.

«ما هو الحب؟». «أنتِ». حين تلقيت منها أول سؤال شعرت باقتحامه لصدري، رددت لها الاقتحام، وأغرقت عينيها بالدمع فأزهر صدرها. كنت كالطفل، عائداً إلى ذاك الزمن البعيد الذي يملأ صورته غبار الماضي، حتى جاءت تبرم شفتيها تنفخ عنه الغبار، وتزيحه بكفها غارسة الحب. نعم الحب، هذا الذي كانت حياتي تفتقده.

ابتدأت عيناي تعرف كيف تبتسم للعالم بعدما رأيتها. هناك في قلب البراءة. في طفولتي كنت ألتقي بسلمى على مسافة بعيدة منها في طابور الخباز القريب من منزلنا، نتبادل النظرات بابتسامة ويغمرنا الحياء، كان ذلك في الصباح قبل الذهاب إلى المدرسة حين كنت أسرع إلى الخباز تلبية لطلب أبي حتى يقوم بتحضير الإفطار لأصدقائه في المجلس، وهناك يبدأ يومي بفرح لقائها.جميلة، قطعة من غيمة برفقة صلصال جامد، كان أخوها الضخم الذي دائماً ما يرشقني بنظرات ماذا تريد! وهي تجوب فوقي كلما نظرت إلى عينيها، أمطر أملاً.

كنت أفتقد سلمى في بعض الأيام، ويظل مزاجي عكراً طوال اليوم، لم أسمع صوتها قط، وفي يوم من الأيام، اختفت سلمى من طابور الخباز بلا عودة، وظل الصلصال أخوها يقف وحده، حتى أنه لم يعد يسألني بنظراته ماذا تريد.. حتماً لم أكن أريد صلصالاً آنذاك..

تسكن سلمى على قرابة سبعمائة متر من منزلنا، وكان جدها من رواد مجلس أبي، وأثناء معاركي مع كبار السن، كان يعبّر عن موقفه تجاه آرائي بقسوة أحياناً، خرجت من المجلس غاضباً منه ذات يوم، وكان البرد قارصاً، فراودتني فكرة الانتقام، وهي فكرة تفيد أحياناً مع الذين منحتهم أعمارهم تلك السلطة الدكتاتورية. وقع نظري على حذائه الذي أضاعه ذات مرة بسبب ضعف نظره، وأرشدته إليه، كان كحذاء الجندي الهارب، وأثناء انشغاله مع رفاق أبي في تناول الإفطار، أخذت حذاءه بهدوء، وملأته بالماء البارد. وقفت بعيداً أنتظر خروجه لأستمتع بنيل حقي منه. تشرّبت جواربه بالماء وهو يرتدي حذاءه، قفز عالياً من شدة برودتها، تواريت خلف النخلة لأمنح نفسي حرية الضحك.

- كل يوم لا تخرجون عن حدود هذا المجلس وغيرها من المجالس.

رشقني أبي بنظرة، فقال بصوت منخفض:

- ماذا تقول يا خالد. عيب.

احمر وجهي، فقلت بخجل:

- كنت أعني لماذا لا تكون لديهم أعمال أخرى!

صمت أبي قليلاً، وأسند ظهره إلى الحائط، ورفع صوته قائلاً:

- أسمعهم ماذا تقول يا خالد.

ازداد خجلي. ترامت إليّ نظرات كبار السن مترقبين قولي، وبنبرة مرتعشة:

- شاي وقهوة كل صباح، بل قد يستمر ذلك إلى يوم غد دون عمل.

قال أحدهم:

- انتهينا من العمل، قضينا أعمارنا نعمل حتى شخنا يا بني، ونروّح عن أنفسنا في مجالسة بعضنا نتبادل الأحاديث والذكريات.

قلت على استعجال:

- فهمت. ولكن بعض الأحاديث لم أستفد منها، لا أدري ما علاقتكم بعبدالله أبو راس وبطولاته.. هو لم يعد على قيد الحياة.

ضحك بعضهم. قال أحدهم لجد سلمى:

- رد عليه.

قال جد سلمى ساخراً:

- هذا الجيل لا يعرف كيف يتحدث.

صمت المجلس، فقال أبي مازحاً:

- عبدالله أبو راس بطل مات، أنت ماذا فعلت يا سيد العجائز.. تأكل وتنام.

ضحك البعض، فقلت مندفعاً:

- تتحدث عن بطولاته ولم نسمع عن بطولة واحدة لك.

قال جد سلمى هارباً من الحديث:

- أصبحوا.

ضحك أبي وهو يقول:

- نعتز بك يا أبا راضي.

كانت سلمى تستمتع بحكاياتي. وكانت أيضاً تعبر عن فرحها بتلك اللحظات التي عشناها سوياً، والتي عاشتها أيضاً مع جدها.

في السنوات الست الماضية التي عشتها هنا في مكتبتي بعد أن تخلصت من وظيفتي التعيسة، كانت القراءة هي جل اهتمامي، هي الحياة التي لا أرغب في الرحيل عنها، بعد رحلة طويلة مليئة بالتعب والتجارب المريرة في هذا الواقع. لم أع أنني كنت أخوض صراعاً حقيقياً مع الحياة وستحملني إلى نهاية بشعة، كان واقعاً كالوهم، فضاء أسود غرقت فيه ببطء تائهاً.. اتجهت للكتب وتعلّقت بها أكثر مما كنت متعلقاً بها في المدرسة. وأصبحت أكتب بشراهة، كل ما يجول في

فكري، وجدت الكتابة عملية تنفس طبيعية. لم أعرف هذا الهواء النقي في الخارج، حتى امتلأت الأدراج من المسودات. نعم، كانت قراءاتي في السابق مقتصرة على تاريخ شبه الجزيرة العربية، والتاريخ القديم كذلك، وكتب المستشرقين وأهدافهم الدينية والسياسية والاقتصادية والمعرفية.. توسعت قراءاتي، متعمقاً في كل المجالات المتنوعة حتى بدا لي أنني أجمع العالم في مكتبتي، محاطاً بجميع البشر باختلافاتهم وانقساماتهم وأفكارهم وتوجهاتهم، حتى أتقنت مهارة تفكيك العالم وتشريحه، وإعادة تدويره. كنت أضع العالم أمامي وأُديره بسبابتي محاولاً الفهم، أن أخرج بفكرة، نتيجة، أو أي شيء يثبت لي أنني ما زلت أحمل رأسي أنا،وأني قادر على خوض الحياة حراً.. تعرّفت على شخصيّات كثر في الكتب، دخلت عوالم لم أعرفها من قبل، تشدني إلى العيش بها، كانت أجمل أوقاتي حين أقبض على معلومة تُحيلني إلى تفسير طبائع البشر، وتغرقني في تحليل أشخاص التقيت بهم في السنوات الماضية، حتى أخي حامد كان حاضراً، تعرفت على شخصيته من خلال الكتب، وعلى نمط تفكيره، وسلوكه.. أيضاً عوض كنت أتتبع أثر فكره في الكتب، وشخصيته الملقاة على الأسطر في كتب علم النفس.. كل شيء أمامي يختلف، أصبحت أغوص في الأشياء أمامي وكأنني أتعرف عليها للتو على الرغم من أنها كانت أمام عيني طوال حياتي.. تعرفت على الأحلام، ومشاعر الإنسان، وعقد التفكير، تعرفت على كل شيء قد فشلت في التوصل إلى معرفته في هذا الواقع السخيف جداً.. كم كنت تافهاً من قبل، لا معنى لي في هذه الحياة، فقد منحتني المكتبة قيمة لوجودي..

وما يحزنني حقاً أنه لم يحدث هذا كله إلا متأخراً، وأن جميع ما حصل لي في السابق قد تعلمت في مرحلة متأخرة منه كيف أملك القوة لمواجهته.. ماذا لو عاد الزمن بي وأنا على ما أنا عليه الآن من قوة! ولا أنكر أنني ما زلت أعاني من تعرضي باستمرار لهجمات التساؤل، هل أنا أسير بالاتجاه الصحيح! هل أنا على وعي تام! ما هو دوري الآن!

في عام 1997م عزمت على استكمال تعليمي، كان ذلك ممتعاً بالنسبة لي، وهي السنة الأخيرة من مرحلة الثانوية التي تركتها في عام وفاة أبي. علقت في أزمة التيه بعدها لأربع سنوات، لم أصنع فكرة لحياتي، ولم أحمل شغف البحث عن وظيفة أخرى، فخروجي من الوظيفة كان بالنسبة لي انفراجة كبيرة جعلتني أعمل باحثاً عن الذات التي أضعتها. قضيت مرحلة التيه تلك في مكتبتي أو أجالس أختي مرزوقة التي شعرتُ بتحسنها مع قضائي الوقت بجوارها، اعتنيت بها وعملت على إخراجها للتنزه باستمرار، وأصبحت تشاركني القراءة. عاد بريق عينيها كما كنت أراه في طفولتنا.

كانت تخبرني مرزوقة بكل الأحداث التي مرت بها، وحكايات الجيران وصديقاتها اللاتي يزرنها في منزلنا دائماً ليؤنسن وحدتها، حتى أتت على ذكر سلمى. كانت قد أخبرتني في السابق أنها تزوجت ولم تنجب أطفالاً، كان وقع خبر زواجها آنذاك أشبه بخبر صحو الطقس الذي أسمعه في

النشـرة الجويـة، لـم أبـال إطلاقـاً، فلـم أكـن متعلقـاً بهـا، كانـت ذكـرى فـي مرحلـة الطفولـة وانتهـى عبورهـا بالنسـبة لـي. ولكـن خبـر طـلاق سـلمى تلقيتـه وكأننـي فـزت برحلـة علـى متـن غيمـة لأجـول العالـم، لا أدري لمـاذا كنـت مصـرّاً علـى البحـث عـن التفاصيـل أثنـاء حديـث مرزوقـة عنهـا.

سـلمى مـن دفعتنـي إلـى صناعـة فكـرة التعليـم، أخبرتنـي مرزوقـة بـأن سـبب طلاقهـا كان مـن أجـل رغبتهـا فـي اسـتكمال تعليمهـا الجامعـي، وكان زوجهـا رافضـاً ذلـك، فتعرضـت منـه لمعاملـة سـيئة، مـا دفعهـا إلـى التخلـص مـن الـزواج والإصـرار علـى إكمـال تعليمهـا.

كبـرت فكـرة الجامعـة فـي رأسـي، علـى الرغـم مـن أن الفكـرة ولـدت منـذ سـنوات مضـت، إلا أننـي عملـت علـى إجهاضهـا، أعـادت سـلمى إحياءهـا. اختـرت أن أكـون فـي الآداب، كمـا اختـارت سـلمى ذلـك، وكنـت أخشـى اختيارهـا لكليـة الهندسـة أو غيرهـا مـن الكليـات التـي لا تناسـبني.

2

جلست ذات يوم مع رجل طاعن في السن،أُحب الكبار أمثاله، وبالطبع لا علاقة للحصني بهم، أعني من أولئك الكبار الذين يحتل الهدوء مساحة كبيرة منهم، ويمتلكهم بخبرة ساحرة،مزيج من الألم والسعادة، أعينهم تغرغر مع انطلاق رصاصات التنهيد، فتُفسَد بابتسامة نهاية المطاف، هؤلاء صانعو الأجنحة، يحلّقون بي بعيداً إلى حد يدفعني لملامسة القمر، بل أبعد من ذلك بكثير .. لا أدري ما سر هذه المتعة التي أجدها معهم، هذه المتعة التي تُشعل الفضول لدي لأنطلق من منتصف صمتهم متجهاً إلى رؤوسهم محاولاً دخولها بأي طريقة لأبحث عن آلة يستطيعون من خلالها معرفة ماذا سأقول في الجملة القادمة!

الممتع فيه أنه قارئ نهم معلم وصديق للسيد خليل، ويملك مسودات كثيرة، اطلعت على بعضها بعدما أخذني من يدي إلى مكتبته الضخمة، كان يتنقل بي في عوالمه بسلاسة.

دشداشة بيضاء وحذاء صندل، وعصا معقوفة نخر أسفلها السوس ونظارة عدستها بسمك قعر استكانة بادريق. أبيض ممتلئ وجهه بالتجاعيد، شعره ممزوج بالشيب مغطياً عنقه من الخلف، وهامته أرض خالية تجمع في باطنها كنوزاً من الأفكار والمعلومات التي لم أسمع بها قط. وبالرغم من جسده الهزيل إلا أنه على استعداد لمواجهة الموت، هذه القوة التي كانت تحملها روحه تشير إلى الصمود. العم إبراهيم إنسان وقعت في حبه فور مصافحتي له.

بعد تخرجي من الثانوية العامة وانغماسي في بعض القراءات، تذكرت السيد خليل حينما كنت أتصفح كتاب [العدالة الإلهية] وقفزت ذاكرتي إلى تلك الورقة التي دون بها عنوان منزله. أخذت أبحث عنها في المكتبة بمعاونة أختي طوال أربع ساعات تقريباً، فعثرت عليها مرزوقة. خطفت الورقة من يدها، بدا العنوان كلغز أسطوري لاهترائها. تمكنت من نقل العنوان بصعوبة واحتفظت بالأصل.

فرح السيد خليل بزيارتي، وأقام لي مأدبة عشاء، جامعاً أصدقاءه، كانت أحواله أفضل مما كان يخبرني عنها في السجن معبراً عن ذلك بقوله: «انظر أصبح معي هذا» بصوت مليء بالفرح، كان يرفع يده ممسكاً بهاتف نقال نوكيا. رفعت له إبهامي. أما أصدقاؤه فكانوا في قمة الأناقة والاحترام. أعمارهم متفاوتة مابين الأربعين والخمسين. وأثناء تناول الطعام، تبادلنا الحديث، شعرت بأنني أتقاسم الطعام مع مكتبة ضخمة. قرّاء نهمون، يتحدثون بحرية لا حدود لها، سماء رحبة.

قال أحدهم: «نفتقد كبيرنا اليوم» وردد خلفه البقية: «إي والله». «له وحشة». «لازم نزوره باجر» جلست مستمتعاً بأحاديثهم عن ذكرياتهم، ولم يفت حديث واحد إلا وكان كبيرهم حاضراً فيه.

قلت بشغف:

- من هو كبيركم؟

قال أحدهم ممازحاً:

- الذي علّمنا السحر.

أخبرني خليل أنه يدعى إبراهيم، رجل يبلغ مابين الستين والسبعين سنة، قوي وحكيم، قارئ مثقف، تعلم على يده الكثير. جلسوا يخبرونني عنه، فامتلأت شغفاً إلى رؤيته ومجالسته، قلت ممازحاً: «إذن هو كبيري أيضاً». دلني السيد خليل على مكانه، وأخبرني بأنني سأزور عالماً آخر.

مضى يومان. عزمت على رؤية العم إبراهيم. عبث بي التفكير مرة أخرى، وخشيت أن أقع في فخ الاتباع، كما اصطادني عوض وغاب بي عن الواقع. كان ذلك حذري الذي أبطأ من شغفي قليلاً.

مكتبة ضخمة مازالت رائحة الأوراق العتيقة فيها عالقة في أنفي، وملمسها الخشن يعبر عن رصانة ما فيها. كان العم إبراهيم هو الرجل الطاعن في السن الذي يخفي حكايات قديمة في عينيه.

«شاب طموح، سأراك عظيماً» قال بثقة وهو يهزني بكفه. كان مظهر الجملة شامخاً جميلاً وهي تخرج من بين شفتيه، ولكنها سرعان ما ذبلت أمامي بعدما باغتني سؤال في رأسي: كيف ومتى! لم يقل ذلك عبثاً؛ أنا على ثقة، هو لا يقول كلمات لا يعنيها.. أو ربما أخفف عن نفسي هذا التيه فيّ! لا أدري!

دار حديث طويل بيني وبينه في مكتبته الواقعة في السوق القديم، يفتح بابها على الشارع مباشرة. كان تيه نيتشه حاضراً في الأخلاق، وألبير كامو يلتقط صورة تذكارية بجانب مقصلة الحزبية، والكواكبي المصلح البعيد والألباني المصحح وغيرهم الكثير. كان مهتماً بالشأن الثقافي في غياب اهتمام الدولة، ينفق من أمواله الخاصة لإعداد فعاليات وأنشطة ثقافية بسيطة.

- من هو شيخك؟

استدار برأسه الثقيل ينظر إليّ وهو جالس على كرسيه الخشبي أمام مكتبته. أرخى نظارته عن عينيه، وقال باستغراب:

- ماذا!

احمر وجهي، وقلت بلفظ أكثر تأدباً:

- من هو كبيرك؟

عاد ينظر أمامه. أخذ يزيح بعصاه بعض الأوساخ المرمية على الرصيف. عاد بظهره إلى الكرسي. شعرت بأنني أخطأت في سؤالي، زاد ارتباكي، وحاولت الشرح قائلاً:

- لقد سمعتهم على مأدبة العشاء.. أصدقاؤك يقولون بأنك كبيرهم..

سأل بهدوء:

- من هو كبيرك؟

قلت بثقة:

- لا أحد..

قال بسرعة رهيبة:

- إذن أنت الكبير..

تسارعت ضربات قلبي، كنت خائفاً أن يكون اللقاء الأول والأخير لي مع هذا الرجل. دخلت المكتبة لأجلب لي كرسياً، فقال بصوت مرتفع: «الرف الرابع، كتاب بتجليد أحمر عنوانه [لا حقيقة مطلقة] جلست بجانبه، قال لي مبتسما: «الكرسي ليس للراحة..» ابتسمت متظاهراً بعدم فهمي، فقلت: «لم أفهم». طلب مني أن أستمع إلى قراءته جيداً بعد نجاحه في إضاعة عذري عن عدم فهمي له.

جلس يقرأ لي من الكتاب شارحاً ما جاء فيه بطريقة أشبه بالمايسترو، يلوّح بيديه ويحمر وجهه كأنه يمد لسانه إلى أعماق بحر رأسه ليصطاد فكرة حيّة، كنت أشاركه بعض الأفكار، وأرفض القليل منها، كان يسعد برفضي. تحدث عن الدين، والعلم، والفكر، والإعلام.. واختلفنا حول ما إن كانوا سلطة أم وسيلة للسلطة.. كان رأيه بأنها وسيلة وسلطة في آن واحد، اتفقنا أيضاً بأن السلطة هي وسيلة أيضاً.. بدأت أقنع بأنها كذلك من خلال شرحه لي، استمر اللقاء ما يقارب خمس ساعات متواصلة، وما يقطع حديثنا إلا زوّار المكتبة، وهم قليلون جداً..

حكيت له ما حصل معي منذ أن عدت إلى الكويت بعد الغزو.. كان يصب كل تركيزه فيما أقول، هذا ما بدا لي من نظراته، وابتساماته التي كانت تحل دون سبب أراه.. لم تكن تعبيرات وجهه أو اللغة التي يتحدث بها جسده محط شك بالتصنّع لإتقان أداء دور عبقري في مسرح قديم، ليس مثل الذي يحاول أن يوحي بأنه يعرف كل شيء.. لم يكن يشبه أحداً إطلاقاً..

كان لقاء جميلاً، أعطيته نسخاً من مسودات كتاباتي وروايتي، آرائي وأفكاري في كراريس ووددت أن يقرأها منفرداً لأعرف رأيه حولها. أهداني بعض الكتب، وهو يقول: «هذه الكتب للزيارة الأولى، وفي المرة القادمة عليك أن تختار بنفسك ما شئت من المكتبة..». أن أختار ما أشاء، هذا الذي لا أعرف كيف أتقنه. نحن أحرار لا نجيد الحرية.

سرت راحلاً عنه، وأنا أقلب التفكير باحثاً عن سبب تميّزي في نظره قبل أن يعرفني جيداً أو ربما كنت متوهماً بذلك، هذا العجوز لابد أنه محطة كبيرة عبر من خلاله البشر وهم مستقيمو القامة، وأصبحوا يلقون التحايا على حياتهم من بعيد بعد أن انحنت ظهورهم.. تراجعت فوراً عن فكرة البحث عن تميزي حين تذكرت بأنني لست وحدي في عالمه، إنني لحظة في هذا التاريخ الكهل الذي يسير على قدمين بمساعدة عصاه.

3

السنة الأولى من المرحلة الجامعية كنت ألتقي بها في البهو بحياء الأطفال، أُمازحها في بحثي عن أخيها الصلصال حولنا، كانت ضحكاتها تثير الفراشات للرفرفة، أما عيناها فنجمتان تهدياني إلى طريق الحب، وتوت اختار ألا يكون إلا بشفتيها. سلمى، علمتني أن الزمان يلطف بي في دورانه، ابتدأ مع جري طفل للقاء زهرته بين أرغفة الخبز وانتهى آتياً بها أمامي تعانق كفي كفها..

كنت أسير في الطرقات لأكتشف الكلية، أقرأ القرارات والتعليمات المعلّقة على الجدران، خرجت لأبحث عن استراحة بعد التجوّل حول المباني كلها. طاولة وكرسي خشبي وعشب يُغرقه صنبور ماء تالف. عملت على لفه بأكياس نايلون، وبدأت عملية التقطير. عدت إلى الخلف بخطواتي لأجلس دون أن أستدير. نهضت من جانبي امرأة جلست أثناء إصلاحي للصنبور، لم ألحظ وجودها. فنهضتُ خجلاً، قلت: «تفضلي» لمحت بطرف عيني أنها توقفت، وعادت ببطء إلى الكرسي. وظللت واقفاً أنظر إلى الصنبور.

قالت بهدوء:

- هل أنت عامل هنا؟

قلت دون أن ألتفت:

- بل طالب.

صمتت قليلاً، فقالت:

- تبدو أكبر من أن تكون طالباً.

التفت إليها. حجاب أبيض يطوّق قطعة من النور بعينين واسعتين وأنف منسدل برقة ولون أحمر يعاند بعضه ليحتل شفتين. قميص أخضر بأكمام طويلة، وتنورة بيضاء فضفاضة. احمر وجهها، ورددت لها الاحمرار. قلت:

- طالب في السنة الأولى، وأنت؟

سرحت في التفكير متسائلاً أهي سلمى أم لا! ضعفت ذاكرتي أمام جمالها. تحركت شفتاها متحدثة دون أن أسمعها، قلت:

- لم أسمع.. هل أنت سلمى؟

تشرب وجهها بالدماء خجلاً، ونهضت بسرعة تغادر المكان.

مضى أسبوع على إخباري لمرزوقة عما حدث معي في الجامعة، واصفاً لها سلمى، وكانت مترددة في أن تقر بأنها مواصفات تتطابق معها، قالت: «أنت تصف ملاكاً يا خالد..» حبكت مرزوقة قصة قصيرة على مسامع سلمى في الهاتف لتعرف منها إن كانت هي من قابلتني أم لا. قالت لي مرزوقة: «لقد أخبرتها بأنك في عامك الأول في كلية الآداب، بعد هذا العمر قررت الدراسة، ودعت لك التوفيق». جلست مرزوقة تخبرني عن تفاصيل حياتها، وأنها تبادلها الكتب أحياناً، فطلبت من مرزوقة كتاباً قد بادلته معها، فناولتني رواية [عبث الأقدار] لنجيب محفوظ. سررت بأنها قارئة.

اتصل بي السيد خليل يدعوني لزيارته في منزله، وأخبرني برغبته في التحدث عن مشروع ينوي القيام به ويتطلب حضوري بجانب أصدقائه لنستمع إليه.

«أهلاً بالأصدقاء» قال خليل بصوت جهوري يملؤه الحماس في مجلسه ملتصقاً كتفي بكتف الذي بجانبي من شدة الزحام. عددنا ستون رجلاً تقريباً، أنا أصغرهم سناً وأكبرنا العم إبراهيم الذي يجلس بجانب خليل في المقدمة. ينظر إليّ بعض الجالسين متربصين عبور وجهي في ذاكرتهم. لم يبدأ الحديث في المجلس بعد.. مال خليل بجسده إلى العم إبراهيم يهمس إليه، كان الأخير يحدق بي طوال همسهما الذي طال قليلاً، وبدأ الرجال يلهون في الأحاديث الجانبية.

«استمعوا يا رجال.. يعزم العم إبراهيم على تدشين اتحاد ثقافي يجمعنا في مكان واحد، وعلينا تأسيسه جميعنا.. هل أنتم موافقون؟» تحدث خليل وسط صمت الجميع. امتلأت فرحاً بالفكرة التي ستجمعني بهذه الكتب الكبيرة التي أجالسها. قال أحدهم بصوت عال وهو يرفع يده: «أنا موافق» وتوالت الأيادي ترتفع جميعها، ويدي من بينهم. قال خليل: «علينا أن نتفق على تعيين رئيس لهذا الاتحاد الآن..» وقبل أن يكمل حديثه، قال القليل منهم بصوت واحد: «العم إبراهيم.. كبيرنا العم إبراهيم»أشار العم إبراهيم بيده رافضاً الرئاسة، فقال بعضهم: «لنختر أحداً منا حالاً» وأخذ البعض بترشيح نفسه، وتحوّل الحديث ما بين مؤيد ومعارض.

وقف العم إبراهيم متكئاً على عصاه، مستعداً لإلقاء كلمته، نظر إلى الحضور قليلاً، عم الهدوء، فقال بثقة: «لست قادراً على تولي الرئاسة لكبر سني، فالرئاسة تحتاج للقوة وأنا لست بصاحبها، ولكنني سأبقى كمؤسس ومستشار إن أردتم..» صمت قليلاً. أطرق رأسه، ثم رفعه بسرعة يشير إليّ بعصاه قائلاً: «وإن كان لي حق تزكية أحد..

فإني أزكي خالد للرئاسة» أسقط جسده على الكرسي مترقباً رد الحضور.

لج المجلس. تسارعت ضربات قلبي وملأني الإحراج، لم يبلغني أحد بأنني سأصبح رئيساً. قال أحدهم: «من هذا الرجل؟ لا نعرفه» توالت الأسئلة، نهض خليل يطلب منهم الهدوء. فقال: «إنه خالد، رجل يصغرنا سناً، ولديه القوة الكافية لتحمل هذه المسؤولية، ونحن سنقف معه لأداء دوره..» تحدث خليل عني كثيراً، محاولاً التعريف بي. قال بأنني أملك آراء سديدة حول واقع البلاد وأفكار إصلاحية ورؤى واضحة تجعلنا جميعاً نشارك في رفع المستوى الثقافي ورقي المجتمع وبناء الوطن..

قال الذي بجانبي مستغرباً:

- البلاد.. إصلاحية.. الوطن!

نظرت إليه بطرف عيني، وقلت:

- وهل يمكن أن تكون الثقافة محصورة بكتابة مقال في صحيفة كل صباح!

قال بثقة:

- وما الخطأ! أنا أكتب عن تراثنا القديم والتعريف به ليحفظ الجيل الجديد هويتنا وأصالتها!

سألت:

- أصالتها! وماذا عن قضايا المجتمع والدولة؟

قال وهو يعقد حاجبيه:

- تعني السياسة! وما شأن المثقف بالسياسة!

قلت أهز رأسي متظاهراً بالاقتناع:

- يبدو أنني أخطأت، المثقف عليه أن يقدم لوطنه شعراً غنائياً..

قال:

- بالطبع، حب الوطن ماله مثيل.

همست:

- الوطن يعني السياسة!

سأل:

- ماذا قلت؟

أومأت برأسي لا شيء.

كان وجه هذا الرجل يتمتع بملامح الغباء، ويخوض في أحاديث لا طائل منها ويُشعرك بالاستفزاز. كنت أحاول إقناع طفل عنيد بتناول الدواء المر دون جدوى، ونلت مقابل ذلك تلوّثاً سمعياً إثر الإزعاج الذي أحدثته صيحاته على حد اتساع فمه، فرأيت بوضوح في لهاته آثار الجراثيم.

قال أحدهم يدعى سعد: «ليس منا من يرضى أن يكون رئيسه شخصاً لا يعرفه..» اشتد النقاش حتى منتصف الليل، كان العم إبراهيم يستمع إليهم دون أن ينطق بكلمة مكتفياً بالصمت وإن وجه إليه السؤال. شعرت بالإحراج، وقفت لأبدي رأيي: «أشكر العم إبراهيم على ترشيحه لي ولكني أرى.. « قاطعني العم إبراهيم وقال بصوت عال وهو يشير بعصاه: «اجلس يا خالد اجلس..» كان من بين الجالسين شخص يدعى سعد، يشبه طائر اللقلق، لاذع ويعقد الحديث بأعجوبة مطوّقاً به مسامع الآخرين. قال وهو يقف غاضباً: «أنا أرفض.. لابد من انتخابات فيما بيننا تُقام هنا في مجلس السيد خليل» خرج مسرعاً من المجلس واتبعه الحضور. لم يتبق أحد سوى العم إبراهيم وخليل وأصدقائه الذين كانوا معنا في مأدبة العشاء.

هدأ المجلس، صفّق خليل بحرارة، واتبعه البقية، وارتسمت الابتسامة على وجه العم إبراهيم. قال خليل بحماس: «لقد نجحنا.. ولم يتبق سوانا كما كان يعتقد العم إبراهيم.»

لم أفهم ما يُدار، شعرت بالانزعاج مما يحدث، فقلت: «لم أكن راضياً عما حصل، إن كنت أرغب في تولي الرئاسة سأقوم بترشيح نفسي.. والجميع هنا يعلم بأن الرافضين لهم الحق، فكيف يمكنهم الموافقة على تولي شخص يرأسهم وهم لا يعرفون عنه شيئاً ويصغرهم سناً!».

الثقة غائبة، إن الأمر ليس متعلقاً بجهلهم بي وبصغر سني، كان ينقصهم الثقة ولا يمكن البدء بخطوة حقيقية دون أن يرى العم إبراهيم الثقة جليّة أمامه. هذا ما قاله لي العم إبراهيم شارحاً بأن الثقة كانت مزيفة طوال تلك الفترة التي جمعته بهم، كان عليهم أن يثقوا باختيار العم إبراهيم لي وكفى.. كانوا طوال سنوات مضت يحضرون الفعاليات والأنشطة الثقافية الذي كان يقيمها، ويعمل على تقديمهم ومساعدتهم في عرض مواهبهم وتسليط الأضواء عليهم، أدباء ورسامون وشعراء وكتّاب لم يتقنوا حمل الثقة، فانكشف أمرهم حين قام بتزكيتي. وما غابت الثقة في ذلك الاجتماع إلا لطمعهم في نيل السلطة والصعود إلى رأس الهرم الثقافي.

كنت قد قلت للعم إبراهيم في السابق بأن الثقافة لا تدور حول القراءة والكتابة والغرق في آرائنا وتقييد أنفسنا بها، أو على هيئة شِعر ورسم وفعاليات وأنشطة لا تعني للآخرين شيئاً ولا تحمل قيمة حقيقية لذواتنا سوى أننا نتمتع بلحظات عابرة ونقوم بتخزينها في ذاكرتنا لنلجأ إليها لحظة يأسنا أو ننعش بها أرواحنا لتقدمنا في العمر. إن كل ذلك ينتهي فور انتهاء الوقت الذي بدأ فيه؛ لا أمد له ولا تأثير ولا أثر. الثقافة تغيير مستمر، عجلة لا تعرف التوقف، علينا أن نفهم بأن الثقافة واقع لابد أن نعيشه ونترك فيه أثرنا.

ذكر لي العم بأن تلك الأنشطة التي كان يقيمها قد خرجت عن المسار الذي تهدف إليه، وأصبحت مجرد استمتاع يحمل معنى ثقافياً وهمياً، وحفلاً لإظهار المواهب فقط، أنشطة يقوم

بهـا مـن أجـل المثقفيـن للتعريـف بهـم وبأعمالهـم التـي لا تعنـي شـيئاً، وقلـة منهـم حرصـوا علـى تقديـم شـيء لهـذا الواقـع، لهـذه الحيـاة التي لـم نـر فيهـا سـوى عجزنـا عـن تقديـم قيمـة فيهـا.

لـم أقـدم علـى هـذا الاقتـراح إلا بعـد لقائـي الأول معـك يـا خالـد، رأيـت بـأن همومـك التـي تحملهـا ومـا قرأتـه فـي كراريسـك وكتاباتـك ليسـت إلا أفـكاراً تدفـع للتغييـر الحقيقـي، وهـذا مـا أتقاسـمه معـك، ومـع بعـض الأصدقـاء، فتولـدت فـي رأسـي فكـرة الاتحـاد، ولا بـد أن تكـون أنـت رئيسـه. الثقافـة سـلطة وعلينـا كمثقفيـن أن نشـارك فـي قـرارات الدولـة وقضايـا المجتمـع والعمـل علـى تطويـره وتغييـر واقعنـا الـذي نعيشـه. لـن أكـون بعـد الآن فـي الهامـش وأشـغل نفسـي بعـد هـذه السـنوات مـن المحـاولات بأنشـطة لا فائـدة منهـا فـي الحيـاة.. هـل تفهـم؟

كان صـدر العـم إبراهيـم يتـورّم قهـراً ممـا فعـل فـي سـنواته الماضيـة بـلا أثـر يذكـر. كلماتـه حملتنـي إلـى عالـم يصـرخ فـي وجهـي «ابـدأ».

«أبـدأ» فكـرة تنمـو فـي رأسـي، لـم تملـك الجـرأة علـى اللقـاء بـي. وجـدت أننـي أحملهـا تائهـاً بهـا، ولا ينفـك عنهـا هاجـس السـلطة. كانـت الفكـرة ألا أكتفـي بالغـرق فـي فسـاد الواقـع وجمـود الحيـاة أو أكـون أحـد عرائـس الدمـى فـي حفلـة مسـليّة أو أن أقـف متفرجـاً علـى كل مـا يُـدار مـن حولـي دون جـرأة علـى فعـل شـيء، ومـا نلتـه مـن تجربتـي فـي هـذه الحيـاة رغـم أنهـا تقتصـر علـى جانـب صغيـر جـداً منهـا إلا أنهـا كانـت تحمـل الكثيـر للتعبيـر عـن عبثيـة الواقـع الـذي نعيشـه. الثقافـة سـلطة، ولكنهـا ليسـت فاسـدة حتمـاً..

يحزنني ما رأيته في أغلب المثقفين من وهم وتظاهر، يتمتعون بسلطة تعاني من غيبوبة أو يكونون هائمينً بالأحلام ويتظاهرون بأنهم يعيشون تحقيقها، وأن جل أعمالهم ليس لها شأن في الحياة، شعر غنائي لا يحمل فكرة واضحة أو لوحة لشخصية قديمة يعاد إحياؤها وتمجيدها دون أن يُقطف من أفكارها ما ينفع الحياة أو نُكمل بها المسيرة.. أو أي شيء نفعله يقر بوجودنا في هذا العبور الزمني.. عادت إليّ فكرة العمل الجماعي بطريقة لا تستطيع أن تعترف بذاتها، فالفرد وحده لن يقدر على فعل شيء في حياته مهما بلغت قوته..

قال أحد أصدقاء خليل:

- لن ننجح في تحقيق ما نهدف إليه بهذا العدد القليل من الرجال.

قال خليل:

- سننجح.. إننا نحمل الهدف وعلينا العمل سوياً..

قاطعه الآخر:

- ولكننا لسنا على قدرة كافية.. نتطلب مشاركة الجميع ولا نحتمل الانعزال.

قلت:

- في رأيي.. علينا القيام بخطوة أكثر جرأة.. ونخضع لمطالبهم بتطبيق الديمقراطية، إنها ستنقذنا من هذا المأزق..

قال العم إبراهيم بانزعاج:

- لـن نفلـح.. لـن نفلـح.. الديمقراطيـة ليسـت علـى صـواب دائمـاً.. إننـا أقليّـة وهـذا لـن يسـاعدنا علـى تحقيـق هدفنـا.

تساءل خليل:

- وما الحل؟

قلت:

- لنرض بما تنتجه الديمقراطية..

قال العم إبراهيم بحسرة:

- أمـر يدفعنـي إلـى الانتحـار والتخلـص مـن هـذه الفكـرة العقيمـة.. كيـف لـي أن أقـف متفرجـاً علـى منـح الفرصـة لمـن هـم ليسـوا علـى كفـاءة بنيـل السـلطة! سـيحققون أهدافهـم الخاصـة وتفاهـة الثقافـة التـي يزعمـون بأنهـا حقيقيـة دون هـدف.. لا شـيء.. لا شـيء

قلت بإصرار:

- علينـا الاجتمـاع بهـم مـرة أخـرى، ونوضـح الأهـداف التـي يقـوم عليهـا الاتحـاد ووسـائل تحقيقهـا.. فـإن تمـت الموافقـة سـنعلن عـن انتخابـات بيننـا لترشـيح الرئيـس..

خاطـب العـم إبراهيـم نفسـه بصـوت عـال: «الأغلبيـة فاسـدة قبيحـة..». وافـق الجميـع علـى اقتراحـي رغـم عـدم رضـا العـم إبراهيـم.

وخلال أسبوعين من حمل هم فكرة الديمقراطية التي انتهينا بالاتفاق على تطبيقها، لم أكن على ثقة تامة من خطواتي لنيل السلطة، لذا، عملت جاهداً لأكون صاحبها بأي طريقة كانت، دون أن أخسر العم إبراهيم وبقية الأصدقاء.

عدنا للاجتماع بهم ووافق جميع الحضور على ورقة الأهداف والوسائل الذي تلاها خليل، وأنا على ثقة بأن أكثرهم يسمعون بلا دراية حول ما جاء فيها. ترشح اثنا عشر شخصاً، أنا من بينهم. بدأ التصويت. عبرت لحظات عصيبة تاركة قطرات العرق على جبين العم إبراهيم، يردد: «الدمى ستفوز بالاتحاد.» وعلى قرابة الانتهاء من التصويت، قلت للعم إبراهيم: «سننجح» كان يستمع إليّ دون اكتراث، فالخسارة يعيشها منذ أن وافق الجميع على فكرة الديمقراطية.

«خالد المركز الأول» رمى العم إبراهيم عصاه عالياً، يبحث عني بين الحضور ليحتضنني، وهو يردد: «فعلها خالد..» رأيته وكأنه عاد شاباً فرحاً يرقص بخفة. وبعد الاحتفال، قال لي: «ماذا حصل يا خالد؟» قلت: «نسينا أن نتفق على أن الثقافة سلطة ووسيلة أيضاً!»

لم تكن الديمقراطية هي الحل الحقيقي والواقع الذي علينا أن نسلم به، هي ليست وسيلة فقط، إنها سلطة أيضاً نجهل كيف ننالها. الديمقراطية صنم جميل، نعبر عن اعتزازنا به بحب ورضا، ونصوّر لأنفسنا بأننا على حق دائماً ما دمنا برفقته ولن نُهزم وتُسلب حقوقنا ولا يقدر أحد على النيل منا، نحارب بشراسة من أجل الدفاع عن بقاء رونق هذا الصنم الذي سينقذنا من بشاعة الجهل والظلم والفساد في واقعنا.

هذا ما يحصل حقاً، الديمقراطية مسرحية أبدع في صناعة فكرتها الكِبار، كانت أدواتهم جموع من البسطاء والتافهين، الذين يبحثون عن لقمة العيش وإن امتلأت أجسادهم بالحلي والذهب، أو الذين يتوارون خلف الصمت لكي لا يُقذف بهم خلف القضبان، أو الذين تتعطل حياتهم على انتظار بائس ينتهي بفرح عارم حين تودع رواتبهم نهاية الشهر في حساباتهم، أو أولئك الباحثين عن الحرية؛ تلك التي تقف عند حد الذهاب إلى شاطئ البحر بلا اعتراض من أحد، أو تناول وجبة إفطار مع عشيق في مطعم فاخر، أو ارتداء ربطة عنق والتباهي بها أمام الآخرين، أو السفر إلى بلدة لم يزرها أحد من قبل.

هـذه هـي الديمقراطيـة التـي يرغبـون بهـا الكبـار، إنهـا تصنـع حيـاة يمكـن بهـا أن تتنفـس الهـواء فقـط دون مواجهـة صعوبـة، أو مزاحمتهـم فيـه، ويمنحـوك لُعبـاً لتسـلي بهـا تفكيـرك بعيـداً عنهـم، هـذا كل مـا فـي الأمـر!

هـذا مـا فعلتـه مـع الرافضيـن وصولـي إلـى رئاسـة الاتحـاد، كانـت أقصـى أمانيهـم مشـاهدة أنفسـهم علـى شاشـات التلفـاز أو سـماع أصواتهـم فـي المذيـاع وبيـع كتبهـم التـي لا يقرؤهـا أحـد سـوى أصدقائهـم المقربيـن وعائلاتهـم التـي تفضـل المأكـولات الشـعبية علـى القـراءة، ومنحهـم التقديـر المعنـوي بالتقـاط صـورة تذكاريـة وشـكرهم علـى جهودهـم التـي لا تملـك القـوة للخـروج عـن حـدود مناطقهـم التـي يسـكنون بهـا، ومنهـم ضعـاف النفـوس الذيـن يرضـون بالقليـل مـن المـال مـن أجـل شـراء علـب السـجائر أو تعبئـة الوقـود لسـياراتهم الفارهـة، أو اقتنـاء قلـم فاخـر ويتباهـون بسـرد حكاياتهـم المزيفـة فـي تجمـع ثقافـي..

كنـت أريـد أن أنتهـز فرصـة كبيـرة أتـت تحبـو نحـوي بمحـض إرادتهـا، إنهـا السـلطة.. لـن أنالهـا إلا بـرداءة الديمقراطيـة الـذي يتزينـون بـه. التقيـت بالمعارضيـن لفكـرة الاتحـاد برئاسـتي، وانتهيـت بإقناعهـم بترشـيح بعـض منهـم ظاهريـاً وحشـد أصدقائهـم لتصـب أصواتهـم جميعـاً فـي صالحـي، وتقـل بهـذا أعـداد المنافسـين لنيـل الرئاسـة. قمـت بالاتفـاق مـع عشـرة أشـخاص ليعلنـوا ترشـيح أنفسـهم، مقابـل تنفيـذ طلباتهـم بإقامـة الأنشـطة والفعاليـات الخاصـة بهـم، وتسـليط الضـوء عليهـم ومنحهـم مميـزات المشـاركة فـي اتخـاذ القـرار حالـة وصولـي للرئاسـة. نجحـت فـي تشـتيت الأصـوات وكان المنافـس الحقيقـي لـي طائـر اللقلـق وقـد نلـت منـه.

هـذه هـي الديمقراطيـة التـي تمنحنـا الحريـة المطلقـة لنيـل مـا نريـد. أمـا الثقـة فسـتكون حاضـرة فقـط عندمـا نتقـن ممارسـة عـزف ألحـان تحقيـق الأمنيـات علـى مسـامع النـاس. وأكـون أكثـر صراحـة ووضوحـاً، لا يمكننـي تحقيـق شـيء فـي هـذه الحيـاة دون أن أفلـت ربـاط الفسـاد ليتنـاول ذاتـه. لقـد منحـت الديمقراطيـة الحريـة لتمـارس فسـادها علـى ذاتهـا، وخرجـت وفـي يـدي كرسـي. سـلطة الثقافـة علـي أن أتقـن ممارسـتها لأتمكـن مـن العمـل علـى الإصـلاح.. هكـذا أصـل لهدفـي إن كنـت صالحـاً!

4

«سألني صديق ذات يوم ونحن نشاهد برنامجاً وثائقياً عن عالم الحيوان على القناة الثانية لتلفزيون الكويت. هل البقر يعلم بأنه بقر؟» ضحك الحضور. ضحك خالد، فقال: «لم أجبه في الحقيقة، تركته يكتشف ذلك بنفسه، ولا أنكر انضمامي إليه في البحث عن إجابة دون أن أشعره بذلك..» صفق الحضور. هدأ. قال خالد مبتسماً: «أردت النيل منه.. سألته هل السمكة تعلم بأنها سمكة؟» انفجر الحضور ضاحكاً وهو يصفق. هدأ. فقال خالد: «نعم، لقد خرج بي السؤال بعيداً، يبطئ في خطواته، قابضاً على معصمي وهو يريني الأشياء الملقاة على طريقنا، كان كمرشد سياحي شاطر، ابتعد بي كثيراً، رغبت في العودة؛ فما رأيته كاد أن يدفع بي إلى الجنون.. ولكنني عجزت عن إيقاف السؤال..» قبض على عبوة الماء بجانبه، يروى عطشه الباكر وهو يراقب الحضور.

قال مسترسلاً: «الإنسان يقر بأنه إنسان، والعاقل أيضاً، وربما لا يعني أن لهم الحق في منح الشرعية لأنفسهم كإنسانيين أو عقلاء، فسلطة مجتمعاتهم وحدها هي التي تمنح ذلك.. وفي النهاية نقر أيضاً بأن سلوكهم وإبداعاتهم جزء كبير قد يتعرض للتهميش. يختلف الإنسان عن الحيوان كثيراً بعيداً عن الشكل، وربما كما تلقينا في المدرسة بأن العقل وحده كاف لتمييز الإنسان عن غيره.. ولكن سنواجه مشكلة الذكاء الحيواني الذي قد يُخرج بعض الحيوانات عن حد عالم الحيوان في تعاملهم مع البشر.. أريد أن أقول من هذا، أن ما نجنيه من ألقاب ومسميات من الآخر لا يعني أننا

نمتلكها حقيقة، وما يهمنا اليوم هو أننا نعرف من نحن، دون أن نسلم أنفسنا للآخرين، الذين إذا طابت لهم الأفكار نخرت بها مصالحهم وأطلقوا على أنفسهم بأنهم عقلاء، أكْفاء، سادة، ملوك أو أي شيء يريدون به السيطرة علينا.. هل لديكم شك بأنكم إنسانيون!

صمتُ الحضور زاد من ارتباك خالد أمامهم، فحاول تقصير المدة ليصل إلى هدفه من هذه الندوة.

استعاد خالد أنفاسه يقول: «نحن مثقفون.. إن كنا كذلك.. والمثقف لا يعرف الحزبية، فكره مستقل، لا يقيّده حزب أو تيار.. إن تهميش دورنا جريمة ترتكب ضد وجودنا وانتهاك لحقوقنا، ولا نرضى أن يتم اقتصار دورنا على القراءة والكتابة والفنون واتباع أعراف وقوانين لم نصنعها.. لا أحد يملك القدرة على إقصائنا، نحن الشعب على هذه الأرض ولنا حق المشاركة في حمايتها والعمل على رفعتها وازدهارها، ولا يمكننا الوقوف مكتوفي الأيدي، لتجرفنا التيارات الحزبية من حيث لا ندري.. هرمنا من شعاراتهم الرنانة والتسلّق والتملّق باسم الوطن والمواطن من أجل تحقيق مصالح ومنافع خاصة بهم لا تعود علينا إلا بالخيبة، إنهم يتغذون على العنصرية وجعلوا من أنفسهم أسياداً متحدثين على ألسنتنا، وأوهمونا بتحقيق مطالبنا والعمل على حل مشكلات المجتمع.. ولكن كانت منابرهم مسرحاً يستعرضون من خلاله مهاراتهم في الخداع..

نعم، هذا الواقع لا يمثلني لأعيشه، وحتماً لا يمثل الكثيرين هنا، هذا العبث جعلنا نمثّل صورة ميتة لحياتنا، فوضى عارمة من أجل العمل على المصالح الخاصة فقط، أنا ونفسي وجماعتي، عبارة تدمر كل روح تحمل الإبداع.. الواقع يختلف.. نحن مغيّبون.. مغيّبون، علينا أن نشارك في صناعة القرار..»

صمت يشير بإبهامه إلى الخلف وهو يقول: «هل تتذكرون عالم الحيوان.. بعض الحيوانات تخرج عن حدود بيئتها..» أطرق رأسه، صمت قليلاً، ثم نظر إلى الحضور يقول: «حسن.. المثقفون ليسوا أسماكاً..»

تلقى خالد التصفيق بحرارة من الحضور بعد أن اختتم كلمته، ووقف العم إبراهيم احتراماً له واتبعه الكثير، كان ينظر إليهم وهو يبتسم محققاً هذا التأثير في نفوسهم على الرغم من خروج البعض غاضباً لسماعهم كلمات خالد التي قد تهدف لإطاحتهم أو تلحق بهم الإساءة..

كان خالد يعتلي المنبر في إحدى قاعات الجامعة في ندوة نظّمها الاتحاد الثقافي الذي يرأسه، ودعا الجميع لحضورها لينقل من خلاله رسالة إلى أحزاب تعمل باسم الثقافة ومدى حاجة المجتمع إلى دور المثقف..

«خالد» قالت سلمى برقة. تقف خلف ظهره وهو ينظر إلى الورود في بهو الجامعة، فالتفت وراءه. كان صوتها كالحلم يتسلل إلى الحياة. «هلا». قال وهو يبتسم، يترقب اعترافها بأنها سلمى. قالت:

- حضرتُ الندوة.. أنت تحمل هم النبلاء.

ابتسم، وأطرق رأسه قائلاً:

- شكراً.. هل حان الوقت لتكوني سلمى!

ابتسمت بخجل، وقالت تضم ذراعيها إلى صدرها:

- بلى أنا هي، طفلة الخبز. هل تتذكر؟

- أتذكر جيداً.

جلسا على الطاولة في بهو الجامعة يستمعان إلى بعضهما. في البداية لم تكن سلمى تحمل تلك الثقة تجاه خالد، كانت تجربتها السيئة تشد من طمأنينتها لتكون آخر ما يحل في صدرها. بادلها خالد الحديث واستعاد بذكريات تجربته المريرة في الحياة ليلقيها على مسامعها إلى أن وصل للحظة التي تجلس فيها أمامه. شعرت سلمى بالراحة معه بعد أن روى حكايته باطمئنان.

أقوم بتجهز الطعام، وتنظيف المنزل وكي الملابس، والنوم متى دعت حاجته لذلك، وكأنني آلة تعمل ليل نهار رهن إشارة منه، كان قاسياً جداً، فظاً غليظ القلب، يرى أن المرأة خادمة للرجل ولا يحق لها الخروج للتنزه؛ فهو للفاسقات. خروجي للعمل فقط، وقضاء حوائج المنزل أو لشراء ملابس يكون في العام مرتين. لباسي الأسود يغطي كامل جسدي ولا يظهر منه أي شيء، كنت كصخرة ترتدي المعطف لترعب الناس في هذا المسرح الكبير الذي نعيش به. أسير أثناء التسوّق متحسسة أمامي الأشياء لكي لا أصطدم بها. أما هو فيسير على بعد متر أمامي، ينظر إلى ما يحلو إليه من النساء ليسرح بخياله المتعفّن في مفاتنهن، ويرسم لهن ابتساماته التي لم أرها على وجهه في لحظة كنت أفتش عن وجودها في وجهه المتورّم.

زوجي. حين ألفظ هذه الكلمة أصاب بتلبّك معويّ، أنا لا أدري حتى هذه اللحظة التي أقف فيها أمامك، كيف تغلبت على الشعور بقيمتي لأعيش مع شخص لم أشعر بإنسانيته، هذا زوجي! لا أدري كيف تجرأت أن أعلن للناس بأنه زوجي، إنها كلمة تثير الاشمئزاز، وجهه أصبح لصيقاً في ذهني حين أقولها..

وضعت سلمى حقيبتها على الطاولة تفتش فيها عن مناديل لتمسح ما تبقى من دموعها. كان خالد يجلس أمامها صامتاً ينظر إليها متأسفاً على حالها الذي أرهقها.

أتعلم يا خالد، ما زلت أحاول الخروج من المنزل بلا مبرر، لا يهم أين، وإن كانت تنتظرني شاحنة على الطريق لتدهسني وتبعثر أحشائي، لا يهم.. أذهب لشراء أي شيء، رغم توفره في المنزل أو أقوم بالسير ببطء لأرى العالم في الخارج، لم أره منذ مدة، الشوارع، الأشجار، السماء، المطر، كان كل شيء أمامي قطعة من القماش الأسود.. رأيت الألوان يا خالد، كدت أنساها، مضى وقت طويل على طفولتي، هه طفولتي التي لم أنل منها سوى رحلة واحدة إلى الملاهي، كانت رحلة مليئة بالبكاء من أجل الحصول على بوظة أو الاستمرار باللعب، لا أنسى تلك الصفعة التي نلتها من أخي، منها استمر طنين أذني لأيام دون توقف.

إحدى عشرة سنة من السجن. آمنت فيها بأنني حيوان.. لا لم أكن كذلك.. كنت شيئاً لا يمكن للإنسان أن يرأف به، منشفة! حذاء! نعم أي شيء أشبه بذلك يكون مصيره النفايات.. أعشق العصافير، أعني صوتها، فإني لم أرها منذ أن وطئت قدمي السجن، كنت أراها في التلفاز الذي تحوّل في يوم من الأيام إلى راديو يتلو آيات من الذكر الحكيم! لحظة، هل تزوجت من قبل!

كانت سلمى تروي لخالد حكاياتها المأساوية مع زوجها السابق، أطالت في الحديث حتى شعر خالد بأن له الحق في قتله. طلب منها إكمال حديثها دون أن تجعل منه قيداً في الحديث.. حاول أن يضحكها، فقال:» هل لديك ما يمنع أن نلقّبه بوحيد القرن؟» ضحكت تقول:» تباً.. إنه هو..»

أرتدي الثوب الأبيض. سائرة على مهل الخجل أمام الحضور في صالة مغلقة مليئة بالأضواء، والدفوف تثير أجساد النساء فرحين بدخولي، كان جمالي حكاية تُروى. الآن الحكاية مأساة لا يستسيغ طعمها الرجال، تدمي مسامعهم، ولا تسخر مني إن قلت لك بأن النساء تكذبها، هن يرينها كمسلسل درامي على قناة فاشلة.. كذبة صنعتها امرأة فاسقة.. أنا!

كان الثوب الأبيض هو اليوم الأول لبدء سيمفونية حزينة لا يسمعها غيري. سار بجانبي وحيد القرن في تلك الصالة المشؤومة وخلل أصابعه بين أصابعي، فشد على كفي بقوة كأنه يتوعد بالتهام حشرة هبطت على قرنه من بين مئات الحشرات. دخلت السجن على يد أخي الذي كنت بالنسبة له سلعة باهظة الثمن، المهر اثنا عشر ألف دينار، كلها في بطنه.

تم بيعي بنجاح، وصرت تحت إمرة وحيد القرن، كانت أول ليلة من قبلاته كسم قاتل أتجرعه، رائحته الكريهة، وبدنه الذي لا يعرف الماء، ووجهه البشع كالكابوس المتشبث بساعات أيامي.. كان عفناً..

- ماذا تفعلين؟

صوت هز أضلعي. أقفلت النافذة على أصابعي من شدة الهلع. قلت مرتعشة:

- أسقي العصافير التي تحتمي من أشعة الشمس.

جاء نحوي وهو يرمي بشماغه الوسخ على السرير، مشمراً عن ذراعه، وعيناه بلون النار، أمسك بشعري، وأخذ يجرني على الأرض ككيس نفايات. صرخت بقوة حتى اختفى صوتي، كانت لكماته تومض عينيّ وأصبحت كدمية في يده يقذف بي في كل مكان.

تركني مغمى علي. فقت على سكبه للماء في وجهي. فزعت أبحث عن الهواء. صفعني على وجهي. وخرج من الغرفة. لم أستطع الحراك من مكاني، جاء مرة أخرى يخرج لسانه لاهثاً، قال: «إن رأيتك تطلين من النافذة أو تخرجين يدك سأسقطك منها»رفع ساقه المتينة إلى الخلف ووجه إليّ ركلة في صدري، وهو يقول: «فاسقة» تركني أصرخ. كان ذاك اليوم الثالث من زواجي.

سقي العصافير أصبح فسقاً، كل شيء في حياتي يسقيه من فكره يتحوّل إلى عالم من القذارة، حتى ملابسي المنزلية يراها خاصة بروّاد الحانات. مات شعوري الذي كان يحوّل كل بشاعة العالم إلى جمال، نظرتي لم تعد حيّة، أصبحت عيني تضفي على الأشياء بقعاً سوداء.

أتدري، أصبحت مطفأة لسجائره، ظهري مشوّه كحال الوطن العربي، لا أدري ما زال ينتمي ظهري لجسدي أم لا. الدماء لا تعبر من خلاله، ظهري مقبرة. كان يعاقبني على أبسط الأفعال، لم أكن مذنبة في يوم من الأيام، تأخر في كي ملابس، سماعه كلمة لم يستسغها، ويكون عقابي ليلاً سيجارة تنطفئ على ظهري، يغرسها ببطء ويديرها بقوة حتى ينتشر الألم في جسدي.

يغضب كلما تأخرت لدقائق عن الخروج من عملي وهو ينتظرني أمام الباب. يصفعني ويرتطم رأسي بزجاج النافذة. في كل مرة يصفعني على مرأى زميلاتي. عملت في إحدى إدارات رياض الأطفال كسكرتيرة، أبدأ عملي كل يوم بانكسار، وأسير بين الأطفال مهملة أطرافي، كشجرة توشك على السقوط. اعتادت يدي على الارتعاش كلما سمعت صوت ولي أمر طفل، صوت الرجال كمس كهربائي يسري في جسدي.. أما معظم زميلاتي فلم يسمعن مني سوى صباح الخير التي دائماً ما أنسى أن ألقيها عليهن. ما عدا هاجر زميلتي التي كانت تهتم لأمري، تقربها مني كمسكن للآلام ينتهي مفعوله فور خروجي من باب العمل.

أتذكر في بداية وظيفتي، كنت أشكو لهن أفعال زوجي ووحشيته، كانت بعض ردود أفعالهن تقف عند حد: «الله يعينك.. الله يصبرك» أما البقية فيرين بأنني سأؤجر والمرأة المطيعة لزوجها ستدخل الجنة! الغريب بأنهن يؤيدن تصرفاته وأقواله، بل على المرأة أن تكون كذلك، وإلا فهي فاسقة وإن كان ظالماً. كنت مخطئة حين ظننت أن العالم هو أبي وأمي.

كان عملي في أول عام لي من الزواج، وافق وحيد القرن على توظيفي لسبب كان يراه لإعانتنا وحرصاً على أموالي، ولكن لم يكن كذلك بل كان الراتب الشهري في حوزته ولا أتلقى منه سوى القليل من الدنانير.. وله حق صرفه في السفر والتمتع مع النساء في الحانات. أبي مات، وأمي لحقت به بسرعة، وكنت أنا الوحيدة بجانب أخي الذي تخلى عني.

لم أنجب. هذا الذي كان يسعى إليه بات ميتاً فيّ. انطفأتُ فجأة، تكوّر بطني أمامي بعد عناء ست سنوات حاملة في أحشائي طفلاً سيعينني ويؤنس وحشتي في المنزل، وألهو به بعيداً عن الكابوس، كان طفلي كثقب ضوء أسير إليه وسط الظلام الذي أعيش فيه.. انطفأ طفلي وانضم إلى مشهد الظلام، لقد مات في مكانه. دخلت المستشفى ولم أر وحيد القرن لساعة واحدة أمامي. كنت وحدي.

نسيت أن أخبرك عن التلفاز، جاءني مرة يحمل في يده مصاحف، رغم أنه لا يعرف أداء الصلاة جيداً، وأعد له الإفطار ويطلب معاشرتي في نهار رمضان، كانت المصاحف إثر محاضرة ألقاها عليه شيخ في مجلس أصدقائه. هذا الشيخ يتجول بين المجالس ويلقي النصائح والوعظ وتوزيع المصاحف، أيضاً كان يقول لهم بأن النساء شياطين الدنيا. وحيد القرن نقل لي ذلك، وقام بإلغاء القنوات وترك قناة واحدة تتلى فيها الآيات. كان جاهلاً يعجز غالباً عن فك الخط.

أتدري كان حاله هذا فرصة لأطلب منه اقتناء الكتب على أنها دينية، وتساعد في حمايتي من الأخطاء والميل إلى الرجال، كان ثمة وسواس ضخم يتشبث بعقله المتعفّن. كان يصدق ما أوهمه به أحياناً، جامعاً لي بعضاً من الكتب أثناء تسوقنا. قرأت الكتب في وحدتي وأثناء سفره أيضاً، وهو يقوم في كل ليلة بالاتصال مرتين أو ثلاث ليتأكد من وجودي في المنزل، كان مخموراً طوال الوقت. اكتشف أمري ذات مرة، ونحن في المكتبة، سأل البائع عما هو مكتوب في الكتاب فأخبره بأنها رواية.

جرني من عباءتي أمامه وأخرجني من المكتبة وهو يدمدم بالشتائم، كان عقابي سيجارة على ظهري أيضاً. قل لي ألم يكن واجباً على الشيخ تقديم نصيحة للرجال في المجالس لمعاملة المرأة بالحسنى! لم يكن أبي كذلك، لقد كان شيخاً معروفاً معتدلاً، إنساناً..

استذكر خالد معها أباها راضي عندما كان يزور مجلس أبيه مرافقاً جدها، ويعلّم بعض الجالسين الدين ما استطاع، باعتدال وسماحة..

جاءني يحمل وقاحته ذات يوم يخبرني بأنه سيتزوج بأخرى، وهو يضع ساقاً على الأخرى، مشعلاً سيجارته.

- إنها أجمل منك، وسأصبح أباً لعشيرة أيتها العاقر.
- لست عاقراً، لقد مات طفل في أحشائي بسبب ضربك.

ضحك وهو يقول:

- سأتزوج.

خطرت في بالي فكرة التخلص منه دون البدء بطلب الطلاق. أعددت الفكرة بعد يومين. في الساعة الثانية عشرة منتصف الليل، أتيت إليه سيراً على أطراف أصابعي أثيره بمفاتني التي لم تنحن له يوماً برغبتها، لم يرني بهذه الزينة من قبل، لم تكن له إطلاقاً، بل لي أنا وحدي هذه المرة.

سرت إليه مستعدة للموت إن فشلت من التخلص منه. نظر إليّ بإعجاب كأنه ينظر إلى فريسة جديدة، وسيلتهمها من كل مكان بادئاً من خاصرتها التي بدت كانحناءة آلة كمان. وسيعزفني بلحن أخير. اقتربت من وجهه الذابل، قلت له بنبرة انثناء:

- سأعينك على زواجك بمبلغ لم تحلم به قط.

اعتدل في جلسته، وعاد وجهه النتن بسرعة، تسارعت ضربات قلبي. قاومت كي أبقى على ثقتي، فقال:

- كيف؟

قلت بابتسامة:

- سأتحمل تكلفة زواجك.

قال بهدوء الطفل:

- يا سلمى أنت جميلة.

همست في أذنه:

- بشرط.. أكمل تعليمي الجامعي.

دفعني إلى الخلف بقوة، وسقطت أرضاً، قال بانزعاج:

- ما في حريم عندي يروحون الجامعات.

بدوت كقطة تبحث عن ملجأ، سرت على ركبتيّ بغنج، وارتميت بأحضانه، فاستقبلني برفق. قلت:

- المبلغ كاملاً.

قال:

- أتستطيعين تغيير الشرط؟

علمت أن بإمكانه التخلص مني بسهولة وأن بقائي لم يعد يجدي نفعاً، قلت:

- بلى.. الطلاق

قال بلهفة:

- وتكاليف الزواج!

قلت:

- أنا من أتحمّلها، ولباسها هدية مني أيضاً.

كان المال فرصتي الوحيدة التي تقتلعني من هذا الكابوس. تخلصت من وحيد القرن بأعجوبة، وحملت الديون على عاتقي من أجل نيل حريتي. تخلصت منه يا خالد وعدت إلى منزل أبي أتنفس الحرية، أما أخي فقد انتشر في جسده السرطان طريحاً في فراشه لثلاث سنوات ترعاه زوجته المسكينة.

يظن الرجال أنهم مالكو الأرض بمن فيها، يتركون قذارتهم في كل مكان، تجدهم في الشوارع، وفي الأسواق، وفي الجامعات، حتى انتقلت العدوى إلى النساء اللاتي لا يعرفن قيمتهن إلا بوجود رجل، كنت أنا إحداهن.

بعد أن دخل هواء الحرية صدري شعرت بالتيه، هناك ما كان ينقصني، كنت أفتقد شيئاً لم أنتبه إلى ضرورة وجوده، لم تكن الحرية فقط، بل كان يتبعها أمر آخر لا أجده إلا مع الآخرين، ولن أصله إلا بهم، إنها قيمة ذاتي التي لا تتحقق إلا بوجود قوة أمتلكها.. قل لي كيف يمكنني أن أكون امرأة لها مكانة بين النساء والرجال دون أن أعبث بمعنى الحرية وأستخدمها بِذُل، وكأنني أشحذ من الجميع أن يزيحوا لي مكاناً يليق بي بينهم! أتعرف كيف بحثت عن ذلك، باستخدام الرجال، لم ينالوني ولم يتذوقوا هذا الحليب الذي يغطي جسدي، أو رحيق فمي الذي لا يستطيع أحد منهم أن يعيش دونه..

كنت أبحث عن كلمة أشعر بها في شراييني تسير ببطء، تحييني. أحبك، كلمة ضائعة في عالمي، لم أتذوقها من قبل، بل كنت لا أعرف كيف تُقال وإن كانت كذباً.. نعم كنت أريد تلبية أوامري من قبل الرجال، أن يسير الرجل ورائي ككلب جائع أو يناولني وردة وهو يجثو على ركبتيه ذليلاً لشهوته أو يدور حول منزلنا باحثاً عن ظلي من خلف النافذة.. كنت أظن بأنني أمتلك قوة الشهوة. أحبك هذه التي تخرج من أفواه الرجال من أجل إفراغ شهواتهم اللعينة، قد حصلت عليها كثيراً دون أن تحتضنها أضلعي.. لم أشعر بالحب وفقدت نفسي حين نلت قوة وضعتني في مكانة قذرة، رأيت نفسي في المرآة شيطاناً ملعوناً..

تركت العالم، واعتكفت في المنزل لعام كامل، خلالها مات أخي، وبقيت وحدي أفتش فيّ لأجد ما يجعل من سلمى امرأة تمتلك ذاتها. إنني حرة الآن يا خالد.. وأملك نفسي، ألا تكفي هذه القوة لأبقى على قيد الحياة برضا!

5

- علينا توخي الحذر فيما تقول، ستظهر على الهواء مباشرة.

يسير المُعد وراء خالد الذي يتجه بخطواته السريعة إلى أستوديو القناة. توقف خالد يلتفت إليه:

- هل ستقيّدني؟

أشار بيديه مؤكداً وهو يقول:

- لا لا بالطبع أستاذ، ستقول ما تريد ولكن بحذر، إنها قناة حكومية.

ابتسم خالد بسخرية:

- ليس لديّ ما يستوجب الحذر من الحكومة..

اقترب من أذنه هامساً:

- لم نبدأ بعد، بإمكاني الخروج لتتجنب العقوبة.

ازداد ارتباك المُعد ومد ذراعه قائلاً:

- تفضل أستاذ.. من هنا الأستوديو.

يجلس بجانب خالد رجل يدعى سليم وهو عضو في الاتحاد ومن المعارضين لرئاسته.

«هيا نبدأ» قال المعد للمذيع. جلس المذيع يهز ساقيه، فقال خالد وهو يبتسم: «لا تقلق، أنا المسؤول عن حديثي». لم يجب المذيع، وبدا عليه التورط. بعد بدء المذيع بالتعريف عن ضيفيه، وجه سؤاله إلى سليم:

- باعتقادك ما علاقة المثقف بالسياسة؟

استعدل سليم في جلسته واضعاً ساقه على الأخرى، قال محاولاً إظهار ثقته وهو يشير بيديه:

- أعتقد.. أعتقد بأنها علاقة تشبه علاقة القدم باليد في جسد الإنسان.. ولكل منهما وظيفة لا تتدخل بالأخرى.. ليس من المعقول أن يمشي الإنسان على اليدين مثلاً إلا في حالة أنه قطة.. لا تترك مكاناً إلا وتدخله..

ضحك الجميع. قال خالد:

- وليس من المعقول أيضاً أن نكون أسماكاً..

التفت المذيع إلى خالد، وقال:

- ألا تراه مناسباً؟

- بالطبع لا، الرؤية ليست مطابقة للواقع!

كان المذيع يحاول إبداء لطفه تجاه خالد لكي لا يخرج بكلمة تؤدي به إلى عقوبة. بعد أن شعر سليم بالحرج، وجه سؤاله إلى خالد:

- ألا ترى بأن لا شأن للمثقف بالسياسة؟

- لا أريد أن أقف عند حد السياسة.. المثقف لا يمكن أن نخصصه على أمزجتنا ومفاهيمنا، إن كان المثقف الذي تعنيه هو القارئ والكاتب والفنان فقط، فهذا مفهوم خاص بالبعض ولا يمكنني أن أتفق معهم لمخالفتهم الواقع.. عالم المثقف أوسع بكثير مما نظن..

قال المذيع مقاطعاً:

- اسمح لي أستاذ سليم من هو المثقف؟

قال سليم:

- المثقف يملك معلومات هائلة في كل شيء..

قال خالد:

- أحسنت، هناك طباخ يملك معلومات في مجال الزراعة.. هل هو مثقف؟

- ليس بالضرورة.

- إذاً، لسنا مجبرين على الوقوف عند حد امتلاك المعلومات فقط؛ فأنا أرى أن المعلومات يقدر على امتلاكها أي كائن حي.. كقطتك تلك.. وفي تلك الحالة نكون قد فتحنا الباب لدخول مثقفين من حديقة الحيوانات..

قال المذيع لخالد:

- بمعنى أن المثقف هو المبدع.. هل هذا ما تقصد؟

- ولا نتوقف عند هذا الحد أيضاً؛ التقليد أولى خطوات الإبداع، فالمقلد يمكنه أن يكون بارعاً ومبدعاً في تقليده للآخرين وبهذا تغيب الأصالة عنه وهي صفة المثقف الأساسية.

قال سليم:

- لا شأن للأصالة في موضوعنا.. جميعنا أصيلون..
- بلى، المثقف هو الذي يحمل الفكر ويعمل على تطبيقه بتحويله إلى سلوك. فأصالة الفكر هنا ضرورية. ولو لم تدخل الأصالة في ذلك لأصبح المجتمع بأسره مثقفاً..
- لا أتفق. إن المثقف ليس من دوره أن يحشر أنفه فيما لا يعنيه.

قال خالد:

- أنت تبحث عن تقييد المثقف كما هو حالك.. هذا إن كنت مثقفاً.

تدخل المذيع ليهدئ من حدة الحوار، فقال:

- أستاذ خالد.. باختصار شديد حتى ننتقل إلى النقطة التالية.. من هو المثقف؟
- لقد قدمت تعريفاً له، هو الفكر الذي يتم تطبيقه، وهذا الفكر يحمل الأصالة بالضرورة..

قاطع سليم، قائلاً:

- كل إنسان بهذه الطريقة يكون مثقفاً، ألا يحمل الجميع الأصالة!

- بكل تأكيد ليس الجميع يحمل الأصالة، ولا يكتمل مفهوم المثقف إلا في التطبيق، دون حبس الفكرة في الرأس..

حاول سليم المقاطعة وهو يشير بيديه قائلاً:

- لا لا..

استمر خالد:

- وهناك نقطة مهمة.. يرتبط مفهوم المثقف بدوره الذي يقوم به في بناء وتطوير المجتمع والمساهمة في عملية الإصلاح، الثقافة فكرة يتم تطبيقها بإبداع.. المثقف هو من يعمل دون قيد أو تقنين أو تضييق مفاهيم أو انتماء لحزب..

قال سليم مقاطعاً:

- لا أرى بأنه من شأن المثقف كما قلت لك مراراً.. لا شأن له بالقضايا الاجتماعية والسياسية وعمليات الإصلاح.. هذا ليس بدوره..

قال خالد بحرقة:

- الواقع يختلف عما تقول يا سيد، هو مليء بالمشكلات، هذه المثالية التي نرتديها ليست واقعاً، الواقع يختلف عما تقول، ألست على قيد الحياة!

- لا توجد مشكلات حتى نتحدث عنها.. أنت تختلقها من أجل الاستمرار على كرسي الرئاسة فحسب!

احمر وجه خالد، وكأن ثقته قد هربت من مكانها. صمت. واستمر سليم يتحدث دون أن ينتبه له سارحاً بفكره.. ردد قائلاً للمذيع بصوت هادئ:

- أمهلني دقائق..

عاد قلق المذيع، وقال:

- بكل تأكيد.. تفضل ولكن بإيجاز لننتقل إلى النقطة التي تليها.

صمت خالد لثوان، وقال:

- لا يمكننا أن نقبل الواقع إلا إن كنا نعيشه في مخيلتنا، أعني نشكله في رؤوسنا كما يجب لتقبله نفوسنا وترضاه ونصل إلى الاطمئنان إلى أننا لسنا ضعفاء. انظر إلى مستنقع الأحزاب في الدين.. في السياسة.. في العلم.. في الوظائف.. في المجالس.. في كل مكان.. أعني في كل مكان تجد ما يغذي الحزبية بطرق شتى، كأنهم يجمعون على أن الحياة بأيديهم لا سواهم، ويتنازعون فيما بينهم من أجل بسط سيطرتهم على العالم لتقييد الإنسان حتى يتم استعباد فكره ومشاعره.. متناسين أنهم كانوا يرفعون شعارات لا للعبودية.. لا شك بأن من يقبل الواقع ويجهل ما يحدث من خراب وفساد أو يحاول تحويل حقيقة الواقع إلى كذبة ما هو إلا فاشل فشلاً ذريعاً في التخلص من الضعف الذي يكبر في داخلهم ليبدعوا في التظاهر بأنهم سعداء.. لا يبالون بشيء بصحبة تلك الابتسامة التي يختلقونها لأتفه الأسباب.. نعم هذا مضحك جداً..

وأفضل ما يملك أحدهم من عبارات ليقنع نفسه من خلالها متظاهراً بحقيقتها عند قوله: نحن نعيش إخوة وأحباباً، ونمثل القلب النابض لهذه البلاد، إننا في نعمة وأمان.. إنها عبارات لا نعيشها حتى في هذا اللقاء الذي يجمعني بكم..

قال سليم بغضب:

- أنت تخرج عن الحديث..

قاطعه خالد مسترسلاً:

- أنا لا أدري في هذه الحالة ماذا يرى الجائع إذاً، تلك الأسر المتعففة التي لا تنظر إليها بيوت الزكاة إلا بأوراق تثبت عجزهم عن إيجاد طعام! أو المرأة التي لا تحمل حق الرأي في شؤونها، أو المريض الذي أخذ نصيبه ابنُ الأكابر من العلاج، أو المظلوم في سجنه العاجز عن تبرئة نفسه، أو المسلوب حقه في عمله، أو الفاشل الذي اختار الفشل بدلاً من أن يكون منصاعاً لأوامر ظالم أو فاسد، أو من اختار أن يكون وحيداً بعد أن خُطفت منه أحلام طفولته البسيطة، أو التعليم الذي لم يعد تعليماً حقيقياً سوى في نيل شهادة..

قال سليم غاضباً:

- أنت نلت الرئاسة مصادفة، وعليك أن تتخلى عنها، فهي ليست لك.

استمر خالد في حديثه، قائلاً:

- كل شيء يتمزّق أمامنا، بفعل العنصرية والطائفية والحزبية حتى في تلك القبائل والعائلات التي تتصارع فيما بينها من أجل إظهار قوتها في إضعاف الآخرين،

تماماً كما هو في الدين، الكل يتنازع على أنه المختار من الله وأنه على صواب والبقية في ضلالهم منغمسون، أين حقيقة الواقع الذي يتحدثون عنه! هل هي في الثقافة! هذه التي امتلأت بالأحزاب أيضاً! هل هي رسام حين يتشدق بفنه الذي أتى به مقلداً من أقصى الديار؟ أو ذلك الذي يتلوّن حسب حاجته للظهور في التلفاز أو الوقوف على منبر يلقي محاضرة ميّتة؟ أو قارئ ينتهي دوره عند دفة كتاب؟ أو شاعر يداهن السلطة من أجل بقاء ملعقة الذهب في فمه؟ أو ممثل اختار أن يكون مهرجاً بحجة أنه كلمة في رسالة نبيلة؟ أو كاتب أضاع هدفه من أجل المال والشهرة الفارغة، ما يحدث ليس سوى واقع مشوّه نحاول أن نزيّنه بأبشع الكذبات والشعارات..

حاول المذيع أن يهدئ من فورة خالد قليلاً، دون أن إحداث فوضى، فسأله:

- ما هو الواقع أستاذ خالد؟
- أنا أرى..

قاطعه المذيع:

- على عجالة من فضلك وبهدوء.. تفضل
- حسن.. حسن.. في رأيي أن الواقعية عند البعض تقف عند حد البيئة المحيطة بهم، وقد تقف أيضاً عند حد ما يحصل معهم فقط، ومالا يحصل معهم لا يمكن أن يحصل مع غيرهم.. وما دون ذلك فهو غير واقعي في حكمهم.. وعدم تخطي ذلك الحد الضيّق جداً يجعل

تفكيرهم في حرج عند مرحلة التحليل والاستنتاج وقراءة ما بعد تلك الأشياء أو الأحداث الظاهرة أمامهم.. العالم أجمع عند هؤلاء هو الذي يعيشون فيه و لا وجود لغيره.. لذلك تجدهم يستمتعون بما لديهم من قدرة عالية في الغوص بظاهر الأشياء. هم بارعون جداً ونشطاء في محاولاتهم المستمرة مع كل من يخالفهم أو يفوقهم فكراً لتسييرهم إلى تفكيرهم الذي لا يقدرون على الخروج عن حدوده .. هناك سيموتون بطريقة تزعجهم! أرى أن من هؤلاء أيضاً يتفرّع أُناس لهم القدرة على إعادة حكاية الماضي، وبتفكيرهم هذا يأخذوننا إلى عام 1400م على سبيل المثال حين يأتي واحد منهم بعد أن ضُرب بدهشة التأمل مخترقاً حدود التفكير الضيّق وعبور الموت المزعج متأملاً فكرة الطائر والإبداع فيها ويخرج من تأمله هذا إلى إمكانية السفر من بلدته الصغيرة إلى عالم أكثر رحابة عبر مركبات طائرة، هناك رماه استنتاجه إلى أن العالم لا يقف عند هذا الحد الذي يعيشه.. حينها هو أبله، مجنون، معتوه، حالم، أو أي شيء يخرجه عن وجوده بينهم، وأنه غير واقعيّ،فواقعهم هو مطيّة أو أقدام يسيرون عليها.. نحن واقعيون بهذه الصورة الجامدة التي لا نقبل أن نخرج عن إطارها على الرغم بأن العالم يتحرك في الخارج، يتنفس، ينبض، ويقتله التوقف!

استدار خالد بجسده قليلاً ينظر إلى سليم وهو يقول:

- أنا لست باحثاً عن الرئاسة يا سيد سليم.. الثقافة وعي وسلطة إصلاح لكل مثقف.

قال سليم مستهزئاً:

- اترك الرئاسة فقط.. ودعنا وشأننا..

نظر خالد إلى جدران الأستوديو من حوله والكاميرات، فقال يشير بيديه:

- يبدو أن هذا المكان الذي نحن فيه هو أيضاً سلطة تُمارس ضدنا وعلينا تسوية الأمر..

نهض خالد خارجاً من الأستوديو تاركاً المذيع يغرق بعرقه وسليم ينظر ببلاهة. كانت سلمى ومرزوقة تتابعان اللقاء في منزل خالد، والعم إبراهيم وأصدقاؤه فرحون بما سمعوه منه..

رمى سعد الصحيفة على الطاولة بانزعاج، وهو مستلق على الأريكة في مكتبه في وزارة العدل. أزفر قائلاً:

- تباً له.. هل قرأتم صحيفة اليوم؟

قال أحد أصدقائه:

- لقاء خالد التلفزيوني.. إنه ضعيف.

قال سعد غاضباً:

- سأسحقه.. وأنا في مكاني هذا.

قال صديقه مبتسماً وهو يرمي ورقة منديل في القمامة:

- تستطيع سحقه بسهولة وأنت في هذا المنصب الرفيع..

6

يجلس خالد في بهو الاتحاد وحيداً، كان يبحث عن الانعزال تاركاً لعقله حرية التفكير دون انزعاج، وعلى بعد أمتار منه يجلس العم إبراهيم والسيد خليل، وأمامهما يقف رجل غريب يحدثهما، يرتدي بدلة سوداء وفي يده حقيبة.

التفت خالد خلفه ينظر إلى الباب الرئيسي بعد سماعه صوت إغلاقه بقوة. رجل مستدير الجسم يسير ببطء رافعاً طرف ثوبه من الأسفل حذر أن يتسخ من الماء المنساب على طريقه. يتأبط أوراقاً كثيرة، اقترب وبدأ حجمه يكبر حتى حجب ضوء الشمس عن خالد. مد يده يصافح خالد، بدت له رخاوة يده، شد عليها مرحباً بحرارة فاهتز شحم جنبيه واحمر وجهه، أشار إليه بالجلوس. انتزع من تحت إبطه

الأوراق العالقة ضارباً بها الطاولة، وهو يقول بفرح:

- انتهيت.

نظر خالد باستغراب إليه، وأشار بيده متسائلاً:

- ما هذا؟

ارتمى الرجل على الكرسي البلاستيكي وعُلق جنباه، شد على نفسه للأسفل مقاوماً قانون الأحجام حتى استقر. قال بصوته الطفولي:

- هذه روايتي، لقد انتهيت منها اليوم وجئت طالباً رأيك بها..

ابتسم بخجل وعاد يقول:

- نسيت أن أعرفك بنفسي، أنا الروائي ليث.. أعرفك جيداً.

ظل مبتسماً، ورد خالد له الابتسامة مرحباً به. بعد هدوء استمر لدقائق وخالد يتصفح الرواية. قال ليث:

- إنها روايتي القريبة إلى قلبي.. هل أعجبتك؟

قال خالد ببطء كأنه يجمع حروفاً مبعثرة:

- كيف أعرف بأنها ستعجبني أم لا!

قال ليث:

- بقراءتك لها..

- وأنا لا أقرأ الآن.. أنا أقلّب الصفحات..

جلس ليث يمد ساقيه منتظراً رأياً يسعده. صاح خالد فجأة بذهول:

- أنت رائع يا ليث رائع..

ذعر ليث، واهتز في مكانه. صمت خالد فجأة وعقد حاجبيه ينظر إلى الصفحة، ثم قال:

- ضفدع طائر!

قال ليث:

- نعم، البطل هو ضفدع طائر..

قاطعه خالد، يسأل:

- لماذا؟

قال ليث بحماس:

- البطل هو ضفدع طائر، وصديقته الحورية طائرة هي أيضاً..

قاطعه:

- أيضاً حورية طائرة! لم أرها في طريقي وأنا أتصفح.. ولكن لماذا!

- الرواية تدور حول ضفدع طائر..

أخذ ليث يحكي قصة الضفدع والحورية لعشر دقائق دون انقطاع، وقام ينقنق كالضفدع، ومن ثم مد ذراعيه المترهلتين أفقياً يقلد الحورية الطائرة. نفد صبر خالد وقاطعه فجأة قائلاً بانفعال:

- توقف عن هذا أرجوك.. أرجوك.. أنا لم أعرف بعد لماذا الضفدع يطير..

تجمّد ليث وذراعاه في الهواء. أعاد خالد وبهدوء ذراعي ليث مكانهما، ثم قال:

- انتبه معي لثوان.. لماذا جعلت الضفدع يطير في روايتك هذه! لماذا هذا الطيران لكائن يقفز هنا وهناك..

قال ليث ببرود:

- أريد الضفدع أن يطير ويلتقي بالحورية..

قال خالد باحثاً معه عن إجابة:

- حسن.. حسن.. هل تعتقد أن هذا الكائن الذي يقفز بشكل متواصل يحاول تحقيق حلم الطيران مثلاً.. أو.. أو البحث عن تلك الحورية التي أُغرقت في ظلام أعماق البحار وحان وقت تحليقهما معاً لاكتشاف السماء بعيداً عن جمود الأرض وظلام البحار! هل الفكرة هكذا؟

استمر ليث ببلاهته:

- لا أدري ماذا تقصد.. حب الكتابة دفعني إلى أن أجعل الضفدع يطير ويلتقي بالحورية.. الخيال.. الخيال شيء جميل يا أستاذ خالد..

شعر خالد بخيبة، وعاد محاولاً يسأل:

- حسن.. إلى ماذا يرمز الكوكب الأخضر كعنوان للرواية؟

- الكوكب الأخضر هو ظهر الضفدع..

ودع خالد ليث بصعوبة، وقال له من بعيد وهو يلوّح له: «أنت رائع جداً بطريقة لا يمكن تكرارها إطلاقاً..»

أين المعنى! قراءتي هي من صنعت فكرة روايته! صنعت لها المعنى على الرغم من أنني لم أقرأها قراءة حقيقية تجعلني أغوص في أعماقها، إلا أن هذا التصفح العابر جعلني أتساءل، لماذا! هذا التساؤل خطوة ليفهم القارئ قراءته، ليوقظ سلطته النائمة في عقل الكاتب.. أجل.. غياب القارئ هو الذي يدفع ليث إلى كتابة رواية وهو لا يعرف ماذا يعني بها.. كان عليه أن يجعلها رسالة تصل على أقل تقدير إلى قارئ واحد.

أنا لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن أن يتخلى الكاتب عن المعنى في كتابته. كل شيء في هذا الوجود يحمل معنى، ولا يمكن لأحد أن يجتزئ الكتابة من هذا الوجود، ولا يمكن أيضاً أن يكون الاستمتاع وحده معنى، أمر من المستحيل إدراكه، ليس تفوقاً على المدركات، بل أمر لا وجود له.. المعنى في كل شيء من حولنا، كل شيء.. إن الاستمتاع بالفكرة هو استمتاع حقيقي.

كيف لي أن أحقق هدف التغيير والذي يضمه الاتحاد من أعضاء كثر كليث.. منذ أن بدأت أقرأ أعمال الكتّاب وأنا في دوامة الخيبة ويزداد يقيني بأن القليل جداً من يستحق أن يكون كاتباً حقاً. جسد الكتابة مليء بأعضاء لا معنى لها.. الكتابة عمل مقدس.. متى يفهمون ذلك!

ربطة عنق زرقاء مائلة قليلاً، بدلة متسخة أكمامها، تخرج منها يد تُمسك بحقيبة سوداء، رجل يقف أمام خالد بشعر بنيّ مجعد، وعينين ذابلتين، وفك طويل لا ينبت فيه الشعر، ومن خلفه يسير العم إبراهيم والسيد الخليل. «اسمح لنا أن ننهي خلوتك.. هذا المترجم الذي أخبرتك عنه» قال السيد خليل قبل أن يصل.

بنبرته الأنثوية وهو يقلب عينيه منبهراً بفكرة ينقلها لخالد:

- wow فكرة حلوة..

قال خالد:

- قل لي يا سيد فؤاد، هل يعني أنك تستطيع البدء بمشروع تبادل الترجمة بلغات مختلفة؟
- نعم بالطبع هذا ما أنوي فعله بمشاركة فريق عمل كامل، إنهم أصدقائي وأحبابي، ونسعى لنشر وتبادل الأعمال المترجمة ولكن سنبدأ باللغة الإنجليزية..

قاطعه العم إبراهيم:

- ولكن هذا يتطلب الكثير من الجهد، اختيار أعمال إبداعية مرحلة مرهقة في البداية..

ضرب بيده برقة على الطاولة وهو يقول:

- Of course..

أخـذ يطـرق بإصبعيـه محـاولاً تذكـر الكلمـة المناسـبة وهـو يـردد علـى نفسـه: «كتابـة.. كتابـة.. مـا اسـمها يـا فـؤاد مـا اسـمها» ثـم وضـع سـبابته فـي فمـه ليرضـي ضميـره فـي محاولـة التذكـر. كان خالـد والعـم إبراهيـم يتبـادلان النظـرات. نهـض السـيد خليـل مـن مكانـه بسـرعة ليخفـي عنهـم وجهـه الضاحـك. قـال فـؤاد:

- فـي الحقيقـة لا أدري مـا هـي ترجمـة (Pure writing) بالعربيـة ولكـن سـأحا..
- مهلاً يا فؤاد.. مهلاً سأساعدك..

نظـر فـؤاد إلـى خالـد يترقـب مسـاعدته دون حـرج.. اقتـرب خالـد واضعـاً ذراعيـه علـى الطاولـة، يحـدق فـي وجـه فـؤاد، فقـال:

- الكلمـة سـهلة جـداً، وترجمتهـا بالعربيـة هـي أن تخـرج مـن البـاب دون أن تجلـب لنـا الصـداع..

قاطعه فؤاد باستغراب:

- هل تطردني!

قال العم إبراهيم وهو يدك على الأرض مع كل كلمة يقولها:

- أنـت فشـلت في ترجمـة كلمـة إنجليزيـة فكيف نثـق بكفاءتك!

نهـض فـؤاد بسـرعة خاطفـاً حقيبتـه مـن علـى الطاولـة. رشـقهما بنظـرة سـخط، وهـو يقـول: «هـذا المـكان خطـأ..» راح متوجهـاً بحوضـه الأنثـوي إلـى البـاب غاضبـاً يلـوح بيـده مخاطبـاً نفسـه: «لا يحترمـون الإبـداع».

لا يفهم بعض المترجمين أنهم ألسنة العقول، فتجدهم طائشين، يهووون التجربة قبل أن تنضج فكرتها في رؤوسهم، متسرعين.. يظن المترجم في تلك الحالة السيئة من اللغة التي يمتلكها أن له المكانة العظيمة التي تجعله قادراً على أن يكون حلقة وصل بين دول العالم أجمع، أن يجوب بنا الحضارات ونحن في مكاننا، أن يقتحم الرؤوس مفتشاً عن الأفكار البعيدة عنّا، ويعود محمّلاً بها إلينا.. لم يعرف المترجم قيمة ما يملك ومدى خطورته أيضاً، كان من الممكن أن يكون عظيماً مُخلّداً دون أن يدخلنا في عبث اللغة.. المترجم رسول أمين..

7

أحببتها بعد لقاءات كثيرة في بهو الجامعة، كانت لقاءاتنا أهم ما في اليوم، إن حصل لأحد منا ظرف ما يمنعه من المجيء يجلس الآخر مكانه على تلك الطاولة التي لا تعرف أحداً سوانا.

عهد كان بيننا، أن نكتب في حالة غياب أحدنا، أجلس أكتب كل ما أود قوله، أستحضرها أمامي، أخاطبها، أمازحها، أشكو العالم، أغضب وأبتسم، أخبرها عما حدث لي وما أفكر في فعله.. وبعد الانتهاء من الكتابة أسلم ما كتبته إليها بظرف أقتنيه من البقالة جانب منزلي، كنت أخجل من تقليديته، أما هي فتفعل ما كنت أفعله، لكنها تتفوق عليّ بالأظرف الجميلة، كنت قد سألتها عن مكان اقتنائها ولم تجبني، تريد الاختلاف أن يكون حاضراً. الكتابة كانت فكرة سلمى، هي بارعة. على الرغم من سهولة تخطي هذه الفكرة بالاتصال أو في لقاء قادم نطيل به، إلا أنها كانت تعبّر عن فكرة الكتابة في أول رسالة كتبتها: «سأخرج معك يدي تضم يدك عن دائرة يعيش فيها الجميع، هذا العالم رث، وأنا أستحق الاختلاف في كل شيء معك، وأنت كذلك، نحن نستحق أن نخلق عالمنا الذي لا يشبه أحدا..» .

أحببتها ولم أستطع أن أقول لها أحبك، كانت تحمل ذات الشعور في كل لحظة أنظر إلى عينيها التي تحكي حكايات لم أعرفها من قبل، نعم تحمل ذات الشعور حين أنظر إلى عينيها فقط، وفور انصرافها عني أتراجع بضعف، ثقتي بشعورها تختفي، كانت حلماً، ثمة سحر في عينيها يخبرني بأنها تحبني.

أما شعوري تجاهها فيبقى حيّا معي يرافقني، وهذا العقل يقول لي كفاك حلماً لن تنال حبها.. هي ليست لك. يغضبني هذا العقل حين يتناول الحب، إنه قاس جداً، جامد يشبه تماماً أستاذي الجامعي الذي دائماً ما يضرب لنا مثالاً رياضياً بأن الجمع بين اثنين حتماً لن يكون الناتج واحداً.

وجدت سلمى قبل عام، قالت لي بأن الذي أقوم به في الاتحاد يثبت بجدارة بأنني أحمل رسالة نبيلة لم يحملها أحد. كان عملي محل إعجابها، وتلك الأنشطة التي أقيمها في الاتحاد، عانيت في إقناعها برئاسة اللجنة النسائية، وشعرت أن تقرّبها مني أصبح وشيكاً، لم أمنحها حقيقة هذه المكانة إلا لتفرّدها، ولنشاطها الذي يدب في ثورتها حين تعلن عن فكرة اشتعل بها رأسها. لا أدري كيف تأتي بالأفكار، إنها تخلقها، تولّدها، أو تنفخ في كل فكرة ميّتة لتحييها، هي مختلفة على الرغم من الحياة البشعة التي عاشتها مع وحيد القرن إلا أن روحها لم تمت، ها هي تحيي شيئاً ما فيّ لم يكن موجوداً، إنها تحيي الحياة بالحب.

- لماذا لا يكون للنساء دور في هذا الاتحاد؟

سألت وهي تطرق برأس قلمها على الطاولة، رافعة بحاجبها الذي نافس انحناءة الهلال. قلت بشغف:

- بالطبع فكرة رائعة. أن يكون للنساء دور في الاتحاد لهو أمر في غاية الأهمية..

كانت تبحث عن رأيي في دور النساء الثقافي بذكاء ومهارة، وعندما عرضت عليها أن تتولى رئاسة اللجنة رفضت بشدة لعدم قدرتها على حمل عبء قيادة نساء يبحثن عن زينة أجسادهن بدلاً من عقولهن وأن مهاراتهن في الألبسة بطابع ثقافي تتفوق على مهاراتهن في البحث عن أفكار تترك لهن أثراً في حياتهن، فجُل اهتمامهن في ثقافة الألبسة ليتميّزن عن بقيّة الشعوب، حتى تقلّصت أهدافهن وبدأن بالمنافسة بينهن. حكت لي بأنها تكتفي بذكر بعضهن، وهن نماذج مبعثرة في هذا المجتمع اجتمعت بهن صدفة أو قد يكون قدرها لتتعرف على شريحة جديدة من عالم النساء، إنها تنفر منهن إلى حد أن سيرتهن تعرضها للغثيان.

حكت لي سلمى عن تلك السيدة التي قالت لها ذات يوم بأن ثوبها من أعماق الحضارة الهندية القديمة وهو خاص بإمبراطورية ماوريا، كان لقاؤها بها في مكتبة عامة وهي تتصفح كتاب كيف تكون سعيداً. كانت سلمى قد أجابتها فور قراءتها العنوان قائلة: «ستجدين السعادة في ملابسك هذه».

تثق سلمى بأن بعض النساء يقفن عند هذا الحد من المستوى الفكري، بالرغم من براعتهن في حفظ المعلومات، المعلومات فقط، وأن هناك عدوى ساحرة تتنقل فيما بينهن أشبه بمرض الجدري يتسبب في النهاية بإصابتهن بالعمى، فيتخبطن في التقليد والتنافس فيما بينهن. وأخرى من النساء قامت سلمى بمناقشتها عن رواية الغريب لألبير كامو، فصرّحت بأن ليست جميع النساء في العالم الغربي على هذا القدر من القذارة التي قرأتها في الرواية.

تساءلت سلمى عن السبب الذي يغضب هذه القارئة المخدوعة بحديث كامو عن شق القذارة في عالم النساء الغربي وهو لا يعني بحديثه حتماً بأنه لا وجود للشق الجميل فيه! وقالت لها تلك السيدة أيضاً كما هو الحال في بعض روايات نجيب محفوظ، فنساء العالم العربي أشرف مما تتحدث به رواياته، كانت سلمى ترى بأن مثل هذه المرأة من الواجب تزويجها أحداً من سلالة وحيد القرن، لتتعرف على النساء اللاتي يستمتعن معه وهي منغمسة في الدفاع عن جميع النساء أو بطريقة ما يتم حقن أولئك النساء المدافعات عن بعضهن بجينات ليلدن وحيد قرن، ونرى كيف سيتعاملن حينها مع زوجة الابن. قالت سلمى بأن تلك المرأة لم تتوقف عن حماقتها لتتسلل في حديثها عن قصة كويتية، معبّرة عن اشمئزازها لما سرده القاص من قذارة وسوء نساء مجتمعها، والتي بدورها كانت تدافع عن شرفهن قائلة: «لدي الكثير من الصديقات وهن لسن بهذه الصورة القذرة التي تحدث بها القاص» كانت توّد سلمى أن تأخذ بيدها إلى القاص شخصياً لتخبره بأن صديقاتها يمثلن نساء العالم الغربي والعربي والكويتي، والأرض قاطبة، فالويل كل الويل له إن تحدثت عنهن مرة أخرى!

كانت سلمى ترى بأن من يحتاجهن الاتحاد في اللجنة النسائية ليحققن أهدافه صعب منالهن، فلن نجدهن بسهولة، هن قابعات في منازلهن لا يقدرن على مقاومة سلطة مجتمع كهذا الذي لا يزال يحرّم الهواتف النقالة ولا يتزوّج إلا من

معلمة أو ربة منزل ولا تلد إلا عند دكتورة أنثى مثلها! بل يحرم المتطرفون فن الرواية وكتابتها وقراءتها، فالروائي في نظرهن يمارس دور الإله!

لم توافق سلمى على قبول رئاسة اللجنة إلا بعد أن هَزمتُ في عينيّ جميع النساء أمامها، فلا أحد يقدر على تولي المهمة سواها.

كتبت لي سلمى ذات مرة لم أحضر فيها لقاءنا المعتاد: «خالد أتدري ما الذي يجعلني أجلس معك طيلة هذه المدة، هو أنني لم أجد فيك الرجل الذي يريد جسدي، أسئلتك التي تتدرج بها كالثعلب كانت لتناول عقلي، أفكاري، وكلماتك التي تُحاك بسجية روحك الطيبة هي لهذا النابض فيَ خلف أضلع مهشّمة، تمسح عليه برفق ليبقى على اطمئنان.. أنت نبيل يا خالد، وجدت قيمتي معك..»

كنت أطمئن دوماً لكلماتها، لقد رُسمت في قلبها بطريقة مختلفة وجميلة تبعث على الراحة وتزيد من ثقتي بنفسي.. إنها تحبني، هذا الذي أردده دائماً يدفعني لمخيلة سيئة معها كصفعة حارّة منها عندما أقول لها أحبك، على الرغم من أن كل شيء بيننا نعقده من حديث أو فعل نقوم به يوحي لي بأنها تُحبني.. أما أثناء وحدتي فيحدث عكس ذلك تماماً، أتخيّل بأنها ستنصرف فجأة من أمامي وترشقني بازدراء، أو تصفعني، أو تبصق خيبة في وجهي.. ولكنني أحبها بصدق، وكنت أخشى أن تمزّق تلك الرسمة الجميلة الذي منحها لي قلبها في أحد الأيام..

صفاؤها كان يبعدني عن العالم وعن تلك الأفكار المشوّهة التي تقتحمني أثناء وحدتي، أبحث عنها دائماً، وأبدأ بمراسلتها في الهاتف كل يوم لأتخلى عن وحدتي في هذا الوجود: «هل أنتِ بخير؟ هل أنتِ سعيدة؟ هل أكلتِ اليوم جيداً؟ هل ابتسم صباحكِ بصوت العصافير؟» كانت ترد بالابتسامات لتزيح عني هذا القلق بلطف، كنت أبحث عن وجودي حولها فقط، وأتساءل متلاعباً بالكلمات لأصل إلى إجابة أطمئن من خلالها بأن لي نصيباً من تفكيرها، أو أكون قطعة صغيرة من ذاكرتها، باحثاً عن الاستيلاء عليها، أطمع أن أكون كل شيء، أريد أن أكون وحيداً معها في قلبها.. أنا فقط، لأجعل وجودي لا يعرف إلا صدرها أو عقلها أو في كل شيء من زوايا منزلها، وأشيائها.. وهذا ما قمت بفعله بعد أن استوطنت الحاجة إلى وجودي معها باحثاً عن امتزاج روحي في روحها، أهديتها قلماً ليمنحني الوجود بين أصابعها أثناء الكتابة، ووردة بيضاء لتزاحم كثافة شعرها وتنظر إليّ باسمة أثناء وقوفها أمام المرآة، وساعة حتى أملأ الوقت في معصمها، وعطراً يعانقها.. نعم كانت الأفعال هي التي تتحدث عن الحب، لم أعلم ذلك في البداية، كنت أظن بأن الحب في قول أحبك، كما كانت تظن هي كذلك، أحبك كلمة وقعها ثقيل وصعب لا يمكن أن نلفظها بغير العمل بها وتحملها..

في بدايتي معها كان البحث عن يقين الحب يستوجب الشك.. كانت تتصرف معي وكأنني طفلها، زوجها، شيء ما يقول بأنني روحها، كما لو أنها تتعامل مع سلمى، مع ذاتها.

قلت في نفسي بأن تلك الأفعال تصدر طبيعية مع أي شخص آخر، وإن كانت مع زميلاتها. أثناء تناولنا وجبات خفيفة يخرج بعض من الأكل على شفتيّ، فتقوم بتنظيفهما فجأة، كنت أسرح في تصرفها، وحين تضع لي قطع السكر في القهوة، أو تمسح مِمَص العصير بمنديل قبل أن تضعه في كأسي، أو تمد يدها تنزع شيئاً ما تشبث في شعري، أو تنفض قميصي، أو تتعلّق بذراعي لتحتمي بي حين يعبر من جانبها كلب سائب.. كل ذلك وأكثر جعلني أبحث عن سبب تصرفها، قمت ذات يوم بعد أن اعتصرني الشك، هل أنا وحدي من تقوم معه بتلك التصرفات! حان وقت الغباء فهو له دور في البحث أثناء الشك وإن كان عبارة عن سؤال أُطلقه بصياغة غريبة،أو أجري للتفتيش دون تروٍّ عن طريقة أصل بها إلى اليقين.

قتلتُ التردد وسألتها بعد أن احتمت بي ذات ظهيرة حارّة ونحن نعبر الشارع المزدحم:

- سلمى.. هل كنت تحتمين بزوجك السابق؟

خفق قلبي لشعوري بأن خطواتها اختلّت ببطء أثناء سيرها، توقفت تنظر إليّ بعينيها اللامعتين ووجنتيها المتشربتين بالحمرة، همست باستغراب:

- أحتمي! زوجي السابق!

رفعت قدمها لترحل بسرعة، التقطت معصمها بقوة، وعادت إليّ بجسدها، قلت بنبرة حزينة:

- أحب أن يكون كل شيء منك لي وحدي..

صمتت غارقة في عينيّ. أرخيت قبضتي عن معصمها، وراحت تسير ببطء إلى الوراء تاركة عينيها التي لم تفارقاني حتى الآن، كانتا تشعان حبّاً. أقسم بذلك كانت عيناها تتحدثان حباً..

عادت سلمى بعد ذلك اليوم وكأنه لم يحدث شيء بالأمس. تضخم شغفي لأجد الجواب منها. غدوت كالطفل الذي يدور باحثاً عن الحلوى وهي في يده.

ذات يوم انتهزت فرصة حضور العم إبراهيم والسيد خليل لمحاضرة في الجامعة عن أثر الاستشراق، وأخبرتهما بألا يتناولا الطعام منذ الصباح الباكر، فوجبة الغداء سنتناولها معاً في الجامعة بعد انتهاء المحاضرة. كنت أتصل بهما كل ساعة تقريباً لأتأكد من عدم تناولهما الطعام وإن كان بسكويتاً. كانا مستغربين مني، فأكدت لهما بأنه طعام لذيذ يستحق الصيام من أجله.

كانت سلمى حاضرة، يجلس أمامها العم إبراهيم والسيد خليل، نجحت في خطتي لأراهما يأكلان بشراهة حتى كادت أصابعهما تُبتلع من الجوع. أنتظر سقوط شيء من فميهما، أترقب، وأُزيد من الطعام والشراب أمامهما. ظهر بعض الطعام على فم العم إبراهيم، نهضت أستسمحهم الذهاب إلى دورات المياه، وتوقفت خلف العمود الأسمنتي، أنتظر قيام سلمى بشيء شبيه بما كانت تفعله معي. عدت بعد دقائق ووجدتها تتحدث معهما، وما زال فم العم إبراهيم يطفح من الطعام، كما حدث للعم خليل أيضاً. وقفت أضحك على ما فعلته بهما، كنت طفلاً لأرى الإجابة أمام عيني. لم يكن عقلي حاضراً. هذا الحب لا يعترف بالعقل.

تخلصت من هذا كله حين قررت أن أكتب رسالة محتملاً بأنها الأخيرة بيننا، كنت على انتظار سلمى لتعتذر عن اللقاء بي في أحد الأيام. وجاء اليوم لأجلس وحدي على الطاولة، كتبت برعشة لم أنسها، وكأنني أترقب خروجي من ثقب كنت أنظر من خلاله إلى ذاك العالم النقي، وأخشى أن يرفضني. كتبت «أحبك». سلمت الرسالة إليها بطريقة وداع. كنت خائفاً، قلقاً، مبعثراً لا أجيد لملمة نفسي. لا أريد البقاء في هذا العالم الرث، كنت أستنجد بالحب.

كتبت لها رسالة هاتفية: «أعتذر عن اللقاء بك غداً، بعد غد نلتقي» لم تجبني بسرعة كما هي عادتها، انتظرت ساعات وأنا أدور حولي، متعذراً بأنها نائمة وأنا أعلم بأنه ليس بموعده. أهرب من الأعذار وأسلم نفسي للخيبة. جاءتني رسالة منها منتصف الليل بأنها تعتذر أيضاً عن لقاء بعد غد. ازداد تخبطي، لم أنم يومها. كنت أردد: «خسرتها، إذن خسرت الحياة.» رأتني مرزوقة أدمع، أزحت نفسي موارياً وجهي بمنشفة، لم تسألني ومضت تتركني وحدي.

بعد غد، ذهبت لأجلس على الطاولة وحيداً، هذه المرة بلا رسائل. كنت متردداً أن أكتب لها رسالة، ولا أدري ما أقول فيها. أخرجت القلم وبدأت أكتب دون شعور، أتذكر بأنني كتبت: « لا حاجة لي بهذه الحياة، إنها ميّتة. وأعتذر منك. سأنصرف عن الطريق، وأعاند الصدفة في الطرقات بألا أكون أمامك وتلتقي عيناي بك.. أعدك.» أخذت أطوي الرسالة لأضعها في الظرف.

وضعت يدها على كتفي من الخلف، كانت هي، ناعمة، ساخنة على الدوام، التفت إليها، تبتسم، وتقول لي: «أريد أن أسمعها منك يا خالدي..» أدمعت عيناي، كانت أول مرة أسمع اسمي بطريقة مختلفة: «خالدي». خطفت من يدي الرسالة وهي تقول: «هذه المرة سأنقض العهد وأقرأ الرسالة معك هنا وبصوت عال..»ابتسمتُ، وأخذت تضع إبهاميها على عينيّ برفق تمسح الدموع. استدارت تجلس أمامي، قالت: «قلها يا خالد، امنحني أن أسمعها صدقاً هذه المرة.». «أحبك» قلتها وكأن الكلمة ولدت لأول مرة في هذا العالم، أغمضت عينيها فور سماعها، وسقط اللؤلؤ منهما، مدت يدها تمسك بيدي بعد إعلان الحب. كانت هذه اللحظة هي الأولى التي ارتمت باسمة في حياتي. لحظة لن أنساها ما حييت.

كنّا نغضب قليلاً في زخم أعمالنا، ولكن سرعان ما نرضى بطريقة طفولية. لم نسمح للغضب أن يستولي على أيام من عمرنا. إنها الروح. أرضيها برسائل، فترضى، وما زالت تحفظ إحداها: «أنتِ هنا. هذا الذي يرف في صدري أنتِ. وهذا الهواء الرطبَ الخارج من فمي أنتِ.. جميلتي كم أحب أن أراك تبتسمين.. وينثني جسدك عشقاً وحياءً وعيناك تتحدث شوقاً.. هذه الهالة الفاتنة التي لا تغادرك هي عالمي الأبدي، أنت الروح، ولا روح سواك..» قالتها مرة حين احتل وجهها الغضب، كانت تلمّح لي بأنها ما زالت غاضبة مني، فضحكتُ حين نظرت إليها، وابتسمت، خطوت مسرعاً نحوها أمسك بيدها دون أن أشعر، قلت بلهفة: «هل تقبلين بي زوجاً؟»

الفصل الرابع

2003-2006

1

«تميّزي في الأداء الوظيفي تشهد به وزارة العدل، وسيشهد لي المثقف بالتميّز بعد عام من الآن في صناديق الاقتراع أثناء الانتخابات المقبلة للاتحاد الثقافي، الذي يديره الآن مجموعة من المتخبطين والمؤججين للشارع الكويتي رغبة في تحقيق مصالحهم باسم الثقافة..»

صمت يقلّب الصفحات أمامه مترقّباً ردود فعل الجمهور وهو يعتلي المنبر في مؤتمر التميّز الذي أقامته وزارة العدل في أحد الفنادق. رفع رأسه يبحلق في وجوه الجمهور، قال منفعلاً رافعاً يده للأعلى: «أنا أقسم لكم جميعاً بأن من يتولى رئاسة الاتحاد فاسد وتاريخه الأسود المليء بالعار ها هو بين يدي بالدلائل والبراهين، وقد أخبرني عن عاره الشرفاء أهل الإصلاح»

هتف البعض مردداً اسمه «سعد العادل.. سعد العادل» رفع يده يطلب منهم الهدوء، فقال: «أنا أتحدى خالد رئيس الاتحاد من هذا المنبر بأن ينفي ما سأقوله الآن.. مهرّب للمخدرات ومقامر ماهر.. وتاجر للخمور ومرتش فاخر عندما كان في وزارة الداخلية شرطياً يحمي البلاد، هذا هو الذي يظهر في التلفاز والإذاعة والصحف ليخبرنا عن

الإصلاح، ويتولى رئاسة اتحاد ثقافي في هذه البلاد الطاهرة محاولاً حشر أنفه في شؤون الدولة والمجتمع!» تلقى سعد التصفيق من الجميع، ووقف يعبر عن اعتزازه بهم ضاماً كفه إلى صدره..

قال العم إبراهيم بشك يتآكل به.

- هل سننجح يا خالد؟

- سننجح، وسوف يلتهم الفساد ذاته..

«سهل جداً أن نتحدث بطريقة تناقض أفعالنا، لا عجب في ذلك، ولاغرابة في العودة إلى أفعالنا مرة أخرى طالما نعيش في تلك البيضة التي تتلذذ في تناولها دجاجة! نعم نحن قادرون على تصفيف الجُمل كتصفيف الشَعر قبل الخروج من المنزل! ومن السهل أن نقف أمام عدسة الكاميرا نبكي بحرقة، وفور انتهاء المدة ننتظر التصفيق لمشهد وُصف بسذاجة أنه رائع،استطعنا من خلال المشهد الرائع أن ننكر أفعالنا أو نلجأ في أحلك الظروف إلى تبريرها بكلمات سمعناها في فيلم أجنبي لم يُترجم بعد! لنتظاهر بالاختلاف والتميّز. سهل جداً أن نسكب على وجوهنا أضواء حُملت من مدينة حضارية ليرانا العالم أكثر توهّجاً وبهجة، ونشير لأنفسنا باعتزاز نحن الحقيقة.. نحن الحقيقة.. حتى نعتلي رأس جبل ونمد أيدينا نشير إلى خلل في الأسفل، فتفضحنا أوساخ عالقة

على أصابعنا! لقد نجحت الدجاجة في التهام البيضة ونَسِيت أنها فاسدة..».

من كلمة خالد أثناء ندوة أقامها في مقر الاتحاد الثقافي عقب مؤتمر التميّز.

أُصبت بإحباط شديد عندما تلقيت من أحد الحضور خبر ما قاله سعد في المؤتمر، كان عليه ألا يتحدث عني بتلك الطريقة إن كان صالحاً حقاً. ما الذي يجعل الماضي يلاحقني أينما ذهبت، متشبثاً باسمي ويدفعني إلى الوراء بعنف، حيث كنت حقيراً.

عدوك إن لم يجد بك عيباً عارضك بشراسة، وإن لم يستطع أعابك، وإن لم يستطع عاد بك إلى الوراء ليغرس يده في باطن ماضيك مخرجاً أقبح ما في حياتك معلناً انتصاره. إنها لذة الإطاحة بالآخرين تسير في دماء مرضى السلطة، وإن اقتصرت السلطة على ربات البيوت، أو عاملي النظافة في الشارع! فقط البقاء على الانتصار يعزز من مكانة الأعداء، ولا غرابة في أنهم يتفاخرون بتميّزهم في خبثهم ومكرهم وسوئهم وعلى أي شيء وإن كان سخيفاً، ويجوبون كل مكان للبحث عن مكانتهم، حتى في مرضهم العضوي يتنافسون، ويريدون الإطاحة ببقية المرضى، وهذا ما يثير السخرية في الأمر كالذي وجدته صدفة حين قمت بزيارة مريض قال لي: «إن زميله

يتلقى العلاج أيضاً في الغرفة المجاورة منه، ولكنه ليس بذاك المرض الشديد الذي يُرقده في المستشفى، إنه كاذب.. أنا المريض فعلاً وأستحق العلاج.. انظر إلى جُرحي» كان يفتخر بصدقه من خلال تكذيب الآخرين، وعندما زرت من يجاوره وجدت أصابع قدمه مبتورة إثر تعرضه لداء السكر!

إن بحث الأعداء عن التفوّق بإطاحة الآخرين يعني لي أمراً واحداً، أنهم لا يستطيعون تحقيق ما يقوم به النبيل من قفزات كبيرة في حياته، عاجزون، وعجزهم يجعلهم يغرقون في التفكير للإطاحة بالنبلاء حتى يصبح بالنسبة لهم حلماً قد تحقق.

الآن أنا أعانق الأرض وأنظر إلى ابتساماتهم الخبيثة وهم يتنقلون بها من مكان لآخر معلنين فرحتهم بهزيمتهم لي. إنجاز عظيم يحققه الأوغاد حين يتناولون اسمك بشيء من قذارتهم..

أنا لا أملك أداة تمحو الماضي اللعين. الناس لا يعرفون كيف يتخلصون من سوئهم، وليسوا بحاجة ليغفروا الأخطاء، هم يسعدون بأخطاء بعضهم، ينتشون فرحاً بالعثرات، يتلذذون بي، ولا يملكون جرأة الاعتراف بخطوات نجاحي التي تمسح كل ذنب اقترفته في الماضي، لا يريدون هذا إطلاقاً.. ليت الماضي مسطر في إحدى كراريسي لأستطيع تمزيقه حين يزعجني به الناس، وحتى إن فعلت ذلك فلن أنجح في التوصل إلى رؤوسهم لتمزيق أفكارهم السيئة عني أو أبخر بحر الماضي الذي يحتفظون به في ذاكرتهم لإغراقي.. هذه

هي حياتي، أنا من أخطئ وأنا من أُصيب وأنا وحدي من يمتلك زمامها.. وإن دافعت عن نفسي بالطريقة التي أريد فلن ألومها، أنا إنسان بما فيه الكفاية..

شعر خالد بابتعاد الكثير من مؤيديه بسبب الهجوم الذي يتلقاه باستمرار من سعد للإطاحة به، كان يرشو الجميع من أجل الحصول على تأييد له وانتزاع السلطة التي سيعبث في استخدامها، يريد تحقيق مكاسب مالية كثيرة من خلال عقد صفقات مع الشركات الكبرى.

«إنه كتابه يا خالد» قال السيد خليل. لم ينتبه خالد إلى أن الكتاب الذي كان يقرؤه خليل في السجن المركزي من إعداد سعد [العدل في سير الموتى]. طلبه خالد ليقرأه، ووجد فيه سير عشوائية يغلب عليها الاقتباس من أمهات الكتب لسير بعض الشخصيات ناقلاً نهجهم العادل حسب رأيه. عمل خالد على نقده في إحدى المجلات الثقافية بعنوان مستفز، كمحاولة لمشاغبة أفعال سعد السيئة، كان ضعيفاً بخطواته لنيل حق الاحتفاظ بسمعته النبيلة التي تُسلب منه كل يوم.

«لا تقرأ لطباخ التأليف. إن بعض الكتّاب-إن كانوا كذلك- يعدون وجبات سريعة الالتهام، ظناً منهم أنهم أتوا بشيء يضفي الجمال والقوة على هذه الحياة التي نعيشها أو قد حققوا تغييراً جذرياً من خلال ثورة فكرية غيّرت مجرى العالم برمته. لم أجد ما يستحق القراءة في هذا الكتاب على الرغم من أن صاحبه ذو منصب رفيع في وزارة العدل ويتحدث عن العدل في سير الموتى أيضاً إلا أنه لم يستطع إثبات العدل في أفعاله مخرجاً لسانه مسعوراً لتشويه سمعة الآخرين..».

عاد ذاك الإنجليزي يا أبي، تلك القطط النائمة في مكتبتي أصبحت كتباً.. لم أصبح طبيباً أو مهندساً أو ضابطاً، لقد أصبحت كاتباً وفي يدي قلم لا يهدأ..

أصبح خالد شريكاً للعم إبراهيم في مكتبته، مقيماً فعاليات وأنشطة ثقافية كثيرة ذاع صيتها في البلاد خلال شهرين، جامعاً فيها المهتمين بالفنون والأدب، وبعض الأقطاب السياسية المستقلة. استمر في تحقيق هدفه وإثبات نجاحه في رئاسة الاتحاد وزاد عدد مؤيدي فكره مع عمله على تحقيق أهدافهم، كان يهتم بالرأي وقوة تأثيره دافعاً أعضاء الاتحاد إلى الظهور في القنوات التلفزيونية والإذاعية وتكثيف المقالات التي تشيد بدور المثقفين والمطالبة بحرية التعبير عن آرائهم رافضين تقنين أدوارهم في المجتمع.

يجلس في بهو الاتحاد بجانب العم إبراهيم والسيد خليل، يأتى رجل يسير بخطوات منتظمة، لم ينتبه إليه خالد السارح بفكره، ألقى بنظره إليه غير مبال فور وصوله، قال الرجل:

- هل السيد خالد هنا؟

- تفضل.

- أحمل إليك خطاباً مكتوباً من وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل.

«إنذار أول، عدم الخوض في الشؤون السياسية لما في ذلك من مخالفة صريحة لقانون تأسيس الاتحاد..». قرأ خالد الخطاب بصوت عال، وقال منزعجاً:

- لم نخض حصراً في الشؤون السياسية دون غيرها من الشؤون..

صمت ينظر إلى العم إبراهيم والسيد خليل، ضرب على الطاولة بقوة قائلاً:

- نحن مثقفون.. لنا حق حرية الرأي وحق السعي للإصلاح والتغيير في أي شأن..

قال العم إبراهيم:

- بدأت اللعبة القذرة يا خالد..

قال خليل:

- لا أحد غيره.. سعد اللعين.

خالد:

- لن يسقط الاتحاد على يد طائر اللقلق.. سأستمر.

2

- لن ننجح بطريقتك هذه يا خالد..

قاطعه:

- بل سأنجح يا عم إبراهيم. الفساد يقابله الفساد.

كنت أحاول إقناع العم إبراهيم على إفساد خطط طائر اللقلق بالطريقة التي تليق به. رأيت في وجه العم إبراهيم الانزعاج. كان يردد علي قوله: «أنت لست كذلك.. وأنا أيضاً». لم أجد أشد لعنة من التفكير بمضغ الفساد وبصقه في وجه أصحابه، لا يمكنني أن أصل لغايتي إن لم أكن فاسداً، بعد أن بات الأمر أكثر بشاعة مما مضى واضطر طائر اللقلق للجوء إلى أبناء قبيلته لنيل السلطة، بدعوة الأعضاء منهم للابتعاد عن الاتحاد.

قال خالد بانزعاج للعم إبراهيم:

- أنا القبيلة ولن أقف مكتوف الأيدي وسأنادي أبناء قبليتي فرداً فرداً ليقفوا بجانبي..
- إننا لا ننجو من القبيلة.

في كل شهر يسقط من الاتحاد أعضاء معلنين انضمامهم إلى صفوف طائر اللقلق، وببجاحة يرشو بعضهم بعضاً، إنها سلطة المال التي لم أنلها في يوم من الأيام، ولن أنالها ما دمت في مكاني هذا أنادي بتصحيح مفهوم المثقف. المثقف! كلمة أصبحت لا تعني شيئاً في هذا المجتمع، دور كبير لا يقدر عليه أحد، الجميع هنا يكاد ينهار ضعفاً.. أنا مثقف إذاً أُحارَب! العم إبراهيم لم يع بعد أننا نواجه مجتمعاً بأكمله من أجل تصحيح مفهوم متأصل في أدمغتهم المتآكلة جهلاً على الرغم من كل ما فعلناه من أجل تحقيق ذلك إلا أننا نفشل، إن أعضاء الاتحاد يستمرون على مفاهيمهم التي لا يمكن لهم التخلي عنها، وكأنها بمثابة عضو في أجسادهم، كأيديهم أو كأعينهم، ومن هذا الرفض منهم وعدم تقبل دورهم كمثقفين، قُذف فيّ شعور بأنني أقوم فعلاً بخداعهم، وكأنني أحاول إقناعهم بأنهم عشائر مهجنة من الصراصير.. سخيف حقاً إن كنت أظن أنني سأنجح في تغيير مجتمع بأكمله. لقد نسيت أمراً مهماً، أنا لا أملك أدمغتهم من أجل تطعيمها بمفاهيم عليهم أن يسيروا عليها ليجدوا قيمة ذواتهم، وأهمية دورهم في الحياة، فرداء المثقف الممزق الذي يرتدونه لن يمنحهم الستر دائماً، سيفضح أمرهم بأنهم مزيفون في يوم ما. أما

تلك الكتب التي قمت بنشرها أنا والعم إبراهيم من أجل نشر الوعي ورفع مستواه، أجد بأنني فشلت حقاً فيها، لقد نسيت أنهم لا يقرؤون جيداً.. ومن يقرأ يعتكف في منزله بعيداً منعزلاً بانطفاء. جميع من تخلى عن مكانه في الاتحاد يثق بخطواته وهذا ما زاد خيبتي إلى حد شعوري بسقوط صخرة ضخمة على رأسي. لا أدري من أين ينال الجاهل الثقة، يسير بها وكأنه قد اقتطعها من السماء..

بعد شهر من التفكير والعمل توصلت إلى مكتب طائر اللقلق الخاص في الوزارة وحصلت على ما يثبت تورطه بقضايا فساد في الدولة، ولجأت إلى الرشوة لأحصل على أوراق مهمة تدينه كانت بحوزة بعض أعدائه، وعقدت صفقات قذرة مستعيناً بالماضي الذي استخدمه اللقلق للإطاحة بي.

أطرق رأسه وقال بنبرة حزن:

- لم أخنك صدقني.
- يا ياسر.. لقد انتهى كل شيء ولم أعد أهتم بهذا الموضوع..

صمت يداعب كتف ياسر بكفه وهو يقول باسماً:

- هل تتذكر أيامنا الحلوة.. نسير وسط العنابر للحصول على سهرة ساخرة مع الذباب..

ابتسم ياسر:

- أيام لا تنسى وزمالتك كانت جيدة ولكنني تألمت لما حصل معك..
- كفى، بالله عليك أن تنسى..

ابتسم ياسر يقول:

- لقد شاهدتك في التلفاز كثيراً، لم أصدق عينيّ في أول مرة..

ضحك خالد ملاطفاً ياسر محاولاً طمأنته بأنه لا يحمل البغض تجاهه.

عدت إلى الماضي هناك إلى زميل القبح في السجن المركزي ياسر، وبعد أسبوع من المقابلات المستمرة معه، قال لي بأنه قد تاب عن أفعاله وما زال باقياً على عمله في السجن المركزي منتظراً قرار تقاعده، حاولت إقناعه بمساعدتي مقابل الأموال ولكنه رفض ناصحاً بأن أكون حذراً، فالأوضاع قد اختلفت تماماً عما كانت عليه في السابق، وأن السجن امتلأ بكاميرات المراقبة. احترت كثيراً لأصل إلى ما يتردد بمخيلتي كلما وضعت رأسي على الوسادة.. أن أضع في سيارة طائر اللقلق الفارهة القليل من المخدرات والحشيش وإبلاغ الشرطة عنه لأراه من خلف القضبان بعينين تضجان قهراً.. تماماً كما كنت أقرأ في صفحة الجرائم فترة الظهيرة، تلك الحوادث التي تشعرك بأنك تعيش في كوكب آخر.. أفكر حد الجنون، أريد أن أهزم طائر اللقلق هذا الذي نال مني ببساطة

ليصبح اسمي لصيقاً بالفساد والكذب بعد أن عزمت على تقديم عمري للثقافة..

استيقظت من النوم أنظر في هاتفي. وجدت اتصالاً من ياسر ورسائل يطلب فيها مقابلتي، علمت بأنه قد تراجع عن رفضه. قابلته في بهو الاتحاد في المساء وحدنا.

«سأساعدك، على الأقل أزيح الشعور بتأنيب الضمير عن الضرر الذي لحق بك..» كان يبرر لنفسه مساعدتي، ولم يشعر باعترافه لي بطريقة غبية أنه المتسبب في سجني أثناء تهريب المحظورات.

«في فريج التمويل يوجد صديق مقرب لي، وهو الوحيد الذي سيعمل على تزوير أي شيء تريده بعيداً عن المخدرات، بهذا الأمر أستطيع مساعدتك..» وافقت فوراً مقابل الأموال طالباً منه أن يزورني بعد أسبوع.

قمت بكتابة الموضوعات التي أريد تزويرها، كنت أبحث عن توريطه مع وزارة الشؤون التي يمد فساده إليها، كطلب عمالة خارجية بعدد هائل تمت الموافقة عليه من قبل وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل، أيضاً عقود لإقامة مؤتمرات بقيمة تقدر بالملايين. وافق ياسر على توصيلها لصديقه معتبراً أنها من أسهل عمليات التزوير.

- خذ هذا المال لصديقك، وهذا لك أيضاً..

أطرق ياسر برأسه وقال بنبرة حزن:

- شكراً يا صديقي..

سار ياسر خطوتين مغادراً، وتوقف قائلاً وهو يلتفت إلى خالد:

- أنا.. أنا من أخبرت سعد عن حكاياتك في السجن.

كان خالد ينظر إلى ياسر بجمود، ابتسم فجأة قائلاً:

- أعرف هذا.. ولدي ما يثبت تورطك معي في الفساد.

عقد ياسر حاجبيه قائلاً:

- لم أفهم!

قال خالد:

- أنسيت بأننا شركاء في الفساد!

- ماذا!

- إن أخبرت سعد عن أمر التزوير سنتقابل في السجن مرة أخرى..

راح خالد يبتسم وهو يقول لياسر من بعيد: «وداعاً أو إلى اللقاء.. أنت من تختار ذلك وتحدد المكان»

صارعت الوقت لكي لا أمنح طائر اللقلق الفرصة الكافية ليقوم بخطوة أخرى ضدي. كشفت جميع الأوراق في الصحف، وكسبت الكثير من ردود الأفعال، وتقدمت برفع قضايا ضد طائر اللقلق حتى أصبحت محل تقدير لدى الكثيرين. وسرعان

ما استخدم سعد نفوذه ضدي، وأصدرت الوزارة قراراً بتعطيل دور الاتحاد الثقافي. قمت بتقديم شكاوى على وزارة الشؤون دون جدوى، وأصبح الأمر غير واضح لدي، فقرارهم لا رجعة فيه، دون أن أُمنح حق الدفاع عن الاتحاد ودوره..

«أيها المثقفون، سنتعلم من جديد ماذا تعني الحياة بالنسبة إلينا، لست برئيسكم حتى آمركم، إنني أسعى إلى التغيير والإصلاح. نعم، كنت فاسداً، وتخليت في يوم من الأيام عن مبادئي، يوم كنت أتقاسم ضعفي مع المجتمع الذي يراني مجرد أداة يستخدمها.. اليوم أنا لست بتلك الأداة، أنا هدف نبيل يحاول الفاسد تحطيمي، وتحطيمكم جميعاً، سأتنازل عن الرئاسة إن كان هذا هو هدف الفاسد، ولكن لن أتنازل عن هدفي في يوم من الأيام.. قد أعلنت من قبل بأن المثقف سيقوم بدوره كما يجب دون أي قيود تُفرض عليه.. سأقوم بدوري وإن كلفني الأمر أن أقف وحدي في وجه أصحاب السلطات الفاسدة التي تُطعم المجتمعات من أجل تسييرها على فسادها. أنا إنسان قبل أن أكون مثقفاً وأقول رأيي بحرية ممارساً دوري الطبيعي في الحياة.. المثقف لا يمكن أن يكون دمية في يد سلطة فاسدة، أو يرضى أن يُلقى به في زوايا مظلمة على متن هذه السفينة الكبيرة التي تحملنا جميعاً.. لم نتدخل في السياسة دون غيرها، وعملنا على إبداء آرائنا وسعينا جاهدين لتصحيح مفاهيم كثيرة، ونجحنا في بعضها، ونتطرق إلى كل المجالات، في العلوم والمعارف والفنون وغيرها.. ولا نهدف إلا للإصلاح والتغيير، فالاقتصار على قراءة الكتب

والكتابة فقط يعني البقاء على الجمود. من هذا المكان أعلن بأنني لن أقبل أن أكون تحت إمرة الفساد من سلطة تمنحني مكاناً مظلماً لأعيش فيه، فإن محاولات خنق الوعي فينا باتت واضحة للجميع، لن أقف متفرجاً حتى يسقط الوعي مقتولاً أمامي، هذا الإنسان فيّ لم يعد يقبل الهوان..

انظروا إلى القوانين التي يتم تشريعها في البلاد، فإن كانت صحيحة تناسب جميع شرائح المجتمع فلماذا كل هذا الفساد، وهذا الظلم، انظروا إلى واقعكم ستعرفون جيداً بأننا نعيش مأساة وطن ومواطن، علينا فقط أن نأكل ونشرب ونحتضن الوسائد.. إن كان الأمر عنصرية فأهلاً بها، وإن كان ظلماً فأهلاً به، وإن كان فساداً فأهلاً به، وسأواجه بكل قوة من أجل أن ينال المثقف دوره الحقيقي.. ومن هذا المكان البسيط الذي ولدت فيه فكرة تأسيس الاتحاد الثقافي أعلن عن اعتصامي أمام مبنى وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل بعد إصدارها قراراً بتعطيل دور الاتحاد وتهميش الشكوى، ومن لا يرى بأنه على حق أطلب منه المكوث في منزله حتى تنتهي مهمتنا..»

ألقى خالد خطابه في مجلس السيد خليل، وناصره الكثير من الحضور..

«القبيلة كلها تحت أمرك» قال أحد أبناء قبيلة خالد، ابتسم له وهو يضرب على متنه: «أنتم عزوتي..»

3

قال خليل والرعب يملأ وجهه:

- إنهم يتجهون نحونا يا خالد.
- سنصمد أمامهم، ألا ترى هذا العدد الكبير معنا..

لا للظلم. المثقف مواطن أصيل. الثقافة ليست كتاباً وقراءة. سنصمد أمام قراراتكم التعسفية. لن يُسلب دور المثقف. سيعود الاتحاد الثقافي.. لافتات يحملها مناصرو خالد الذين بلغ عددهم خمسمائة وسبعين شخصاً أثناء اعتصامهم أمام مبنى الوزارة.

مدرعات وحاملات أفراد وحافلات.. عدد مهول من أفراد مكافحة الشغب والشرطة يطوّقون مكان الاعتصام. سار خالد نحو الضباط. يلحق بهم الصحفيون وعدسات الكاميرات. جرى اللقاء أمام الجميع.

قال قائدهم:

- أنتم تخالفون القانون.. لا تحملون ترخيصاً للتجمع أو الاعتصام.

قال خالد برفقة السيد خليل والعم إبراهيم الجالس على كرسي متحرك:

- لن نترك المكان حتى ننال مطالبنا ويعود الاتحاد..

- لا نريد استخدام القوة.. وقرار الاتحاد يمكن حله مع الوزارة المعنية.
- قلت لك لن نترك المكان.. حقوقنا تُسلب وعلى الجميع أن يعرف دور المثقف في هذه البلاد.
- أوجه لك إنذاراً وحيداً، الرحيل من هنا قبل الساعة الثانية عشرة منتصف الليل وإلا سأستخدم القوة ونحيلكم إلى النيابة.
- لم نحدث الشغب.. إنها أرضنا ونرغب في نيل حقوقنا فقط..

لـم يخطـر فـي بـال خالـد بـأن هـذا العـدد مـن مكافحـة الشـغب سـيتصدى لهـم ويفـض الاعتصـام.

قال العم إبراهيم:

- علينـا أن نجـد حـلاً.. لا نريـد تصادمـاً مـع مكافحـة الشـغب.

صمـت خالـد يفكـر، وخليـل ينظـر إليـه مترقبـاً رأيـه، قـال بعـد ثـوان:

- لا أدري.. يجب أن نثبت قوة وجودنا بطريقة ما..

قال خليل بنبرة أسف:

- هذه المرة لا أثق بنفسي، لا أشعر بقوتي..

قاطعه خالد بانزعاج:

- لا تثق بنفسك!

صاح العم إبراهيم:

- اصمتوا. إننا في ورطة ولا وقت لدينا..

- لـن أصمـت.. انظـرا مـن حولكمـا.. لـم يحضـر أحـد مـن رجـالات السياسـة هنـا ليعبـر عـن رأيـه..

قال خالد بثبات:

- سننجح..

نظر خالد إلى ساعته الكاسيو، الساعة السادسة والنصف. المعتصمون يفترشون الأرض، راح يسير من بينهم يبحث عن مكان ليختلي بنفسه. اتصلت سلمى: «لا أحد سيأتي من النساء.. سأكون بجانبك بعد قليل»

شعر خالد بأنه أصبح ضعيفاً لا يقدر على الصمود. تسلل العم إبراهيم إليه، وتوقف بكرسيه المتحرك خلفه. قال بهدوء: «انظر إليّ يا خالد، لقد كبرت، قدماي عاجزتان عن حملي.. هل ترى بأنني قادر على الصمود أمام هذا الحشد الكبير من العنف؟ هل سأصمد لإيماني بالفكرة التي عجزت أن أراها حيّة أمامي؟ أنا أسألك الآن، لأنني لم أعد أملك الثقة بنفسي أيضاً، أشك بأنني سأنجح في هذه اللحظة التي جمعنا بها هؤلاء الناس من أجلهم.. المثقف ليس فاسداً، لا نريد أن نحل محل الفاسدين..» عاد العم إبراهيم يدفع بكرسيه إلى الخلف، قال بصوت عال: «ولكنني ما زلت أثق بك» لم يتحرك خالد من مكانه، ولم يقدر على أن يجيب العم إبراهيم.

كان ينظر إلى غروب الشمس جامداً في جلسته ضاماً يديه إلى ركبتيه كشيء لا فائدة منه، تهمله الحياة على الطريق.

نهض خالد من مكانه يصيح بالمعتصمين: «من كان منكم يرى بأنه ليس على حق فليرحل.. من كان منكم يرى بأنه فاسد فليرحل..». عزمت مجموعة من المعتصمين على الثبات في أماكنهم حتى الصباح، وراحوا يرددون على مسامع أصحابهم للبقاء والصمود، ويمدونهم بالطعام والمياه. ألقى

البعض بأجسادهم على الأرض للاسترخاء، وكانت أضواء مركبات الشرطة تعبر عليها كل نصف ساعة لتربك وجودهم. سقط الضوء على عيني خالد محاولاً حجبه بكفه، فظهرت له سلمى تسير من بعيد قادمة نحوه. نهض لاستقبالها. لم تتلفظ بكلمة وهو يحمل عنها ما جلبته إليه من أطعمة. كان وجهها ينطق باليأس. قالت: «لا أحد من النساء، إلا أنا..»

ازداد قلق خالد عاجزاً عن اتخاذ قرار في البقاء أو الرحيل. ينظر إلى ساعته كلما تذكر صوت دك خطوات مكافحة الشغب. يخاطب نفسه: «هل أنا على صواب!» كان يمد جسده الذابل على الأرض متوسداً كفه، وبجانبه يستلقي السيد خليل على ظهره ينظر إلى السماء، والعم إبراهيم جالساً بينهما على كرسيه واضعاً عصاه على حِجره، يسقط رأسه منه من شدة النعاس وسلمى تجلس بالقرب من خالد صامتة حائرة مثله. الساعة الحادية عشرة ليلاً.

قال خليل:

- لقد نفد صبري وأشعر بضرب العصي على ظهورنا.. سنغدو كالذباب هاربين..

قاطعه خالد:

- لسنا بذباب، نحن على حق..

ضحك العم إبراهيم ساخراً وهو مغمض العينين. قال:

- ذباب! على حق!

أخذ خالد حفنة من التراب يجمعها بقبضته ويسقطها سارحاً بفكره..

قال العم إبراهيم ببطء النعاس:

- الحق! إن كنا نعلم جيداً بأن بعض هؤلاء الناس لم يأتوا معنا إلا بمقابل المال..

قاطعه خالد:

- هو اختيارهم الذي يعرفون به قيمة ذواتهم..

صمتوا قليلاً، أردف خالد:

- قلّة من طلب المال للبقاء معنا.. ألا ترى بأنهم يطلبون المال القليل مقابل تعرضهم للسجن!

قال العم إبراهيم:

- كان بإمكاننا أن نرفضهم..

رد خالد:

- نحتاج العدد.. وأنا أعلم بأن الكثير من المثقفين يؤيدوننا ولكن تمنعهم أسرهم.. المجتمع سلطة أيضاً.. أليس كذلك؟

قالت سلمى:

- هذا ما يحدث للنساء أيضاً..

قال خليل:

- وما المرجو من المثقف إن كان المجتمع يسيطر على عقوله ومبادئه!

ابتسم خالد، وقال:

- مثقف! هل قلت مثقف؟!

وقف جميع المعتصمين بالتوالي من بينهم خالد وخليل والعم إبراهيم ينظرون إلى حركة المدرعات بعد أن حانت الساعة الثانية عشرة. عم الهدوء المكان. وبعد عشر دقائق سمعوا خطوات أفراد مكافحة الشغب تدك الأرض بانتظام، ظهروا يجمعون صفوفهم حاملين الدروع والعصي..

قال خالد بصوت عال: «لا مفر الآن، لقد عبرت اللحظة..» ركض أفراد مكافحة الشغب نحو المعتصمين ومن خلفهم مركبات رش المياه.. يرفعون عصيهم مخفين وجوههم بالأقنعة السوداء، لم يتحرك المعتصمون من أماكنهم.. وراح العم إبراهيم يدفع بكرسيه يستقبلهم سائراً أمام المعتصمين رافعاً عصاه وهو يصيح: «سنصمد» ركض خالد نحوه هو يقول: «لا تقف هكذا..»عاد به إلى الخلف. وراح إلى سلمى يأخذها من يدها، همس لها: «إن كان الحب ما زال في قلبك ارحلي الآن..» نظرت إليه باستغراب قائلة: «لن أتركك..».قال بغضب: «بل سترحلين الآن..» قالت بحزم: «أنا على حق، ولست فاسدة..»، عاد بلطفه وهو يبتسم: «ومن يرى بأنه على حب فليرحل..» سارت في اتجاه سيارتها. راح خالد يتخبط بخطواته وهو ينظر إلى أفراد مكافحة الشغب الذين بات وصولهم وشيكاً.. صاح وهو يركض من بين الجموع: «من كان منكم يرى بأنه ليس على حق فليرحل..» أخذ يرددها، وصاح خليل: «اقتربوا يا أهل الصحافة والكاميرات».

بدأت الجموع تنتشر، ودخل أفراد مكافحة الشغب بينهم وهم يضربون بعصيهم بطريقة عشوائية، بقوة وبلا رحمة، كانت

سلمى تختبئ خلف النخيل ترقب خالد. والعم إبراهيم يلوّح بعصاه عالياً أمام أفراد مكافحة الشغب، كان يصهل كالحصان. بدأت الصيحات تعلو، وآخرون يرمون الحجارة على دروع الأفراد. انقسم الأفراد إلى مجاميع متفرقة وهم يهجمون على المعتصمين ويجرونهم إلى الحافلات، بدأت المدرعات تتقدم ومركبات رش المياه تصوّبهم. ألقوا بلافتاتهم على الأرض وفروا يطؤونها هاربين من ضرب العصي على رؤوسهم. كان خالد ينظر إليهم، فوجد أحد الأفراد يضرب بعصاه أحد المعتصمين وهو ملقى بين قدميه، ركض نحوه ليمسك بعصاه وهو يرفعها. قام بشدها إليه، قاوم الفرد ليستردها، فأخذها وضرب رأس خالد وألقى به على الأرض. فقد وعيه، وأخذ يجرّه من قدمه وهو يصيح لزملائه: «خالد معي».

4

«يُفرج عنهم» قال وكيل النيابة. خرجنا بعد أن قضينا واحداً وعشرين يوماً على ذمة التحقيق. أنا والسيد خليل والعم إبراهيم نبتسم لبعضنا، كانت وجوهنا متورّمة من اللكمات والصفعات التي لم تغب عنّا طيلة الحجز. شفتا السيد خليل كانتا محل إعجابنا، كلوحة فنية امتزج بها اللونان الأحمر والأزرق وبعض بقع الدم الناشف باللون الأسود، كانت تعني لنا الانتصار. والعم إبراهيم تحيط بعينيه هالات بنفسجية، وأنفه استدار بارزاً إلى الأمام، كانوا يضربونه بعصاه. أما أنا فأصبحت كخارطة تضاريس قديمة، الجروح في كل مكان

مـن وجهـي. كنّـا فرحيـن فقـد أصبـح وجودنـا فـي هـذه البـلاد مهمـاً ومؤثـراً، فلـم تتركنـا الصحـف يومـاً إلا وأدرجـت أخبارنـا فـي صفحاتهـا. كانـت سـلمى تنقـل لـي الأخبـار بالتفصيـل عبـر الهاتـف عندمـا يسـمحون لنـا بالاتصـال. وبـدأت أتنفـس الفـرح وأنـا خلـف القضبـان بعـد سـماعي خبـر إحالـة طائـر اللقلـق إلـى التقاعـد ومحاكمتـه واسـتقالة وزيـر الشـؤون الاجتماعيـة والعمـل.

«حـان دور الداخليـة» همسـتُ للعـم إبراهيـم. قـال لـي: «لـم يسـكن الألـم فـي أجسـادنا بعـد». لقـد تعرضنـا للتعذيـب أثنـاء التحقيـق. ملثّمـون لا نعـرف هويتهـم بأجسـاد ضخمـة. عصـي وسلاسـل وخراطيـم متينـة ترشـنا بميـاه بـاردة ونحـن عـراة. كان العـم إبراهيـم يتألـم بشـدة، يزحـف علـى الأرض هاربـاً مـن الضـرب. بكيـت بحرقـة وهـو يمـدّ يـده إليّ وعيناه ترجـو النجـاة. كان يصيـح متوسـلاً للملثـم: «كفـى أرجـوك أنـا بعمـر جـدك..». لـم أكـن أملـك شـيئاً سـوى سـروالي الداخلـي وأصفـاد تقيّـد يـديّ وقدميّ قابعـاً فـي زاويـة غرفـة الحجـز تنهـال عليّ الضربـات مـن كل مـكان. كنـت أصـرخ فـي أول يـوم تلقينـا فيـه التعذيـب: «أنـا من أتيـت بهـم هنـا» كان الملثّمـون يسـخرون منـي. والسـيد خليـل كان أكثـر مـا يُعـذب بـه رش الميـاه والمهانـة بمسـح أحذيتهـم. أمـا بقيـة المعتصميـن الذيـن قُبـض عليهـم فلـم نرهـم معنـا طيلـة الحجـز.

5

منذ مدة طويلة لم أدخل مجلس أبي. فتحت بابه الحديدي الثقيل، وكأنني فتحت باباً لحكايات قديمة لا يعرفها الموت. كانت الرائحة في المجلس تصرّ على أن أبي لا يزال حيّاً، هناك يجلس في مكانه المعتاد، بابتسامته التي تعلن عن نور قادم حين أُقبل عليه، عن أمل بعينيه اللامعتين، تؤمنان بأنني أحمل سيرة خالدة، وكفه التي يضعها على المسند يمينه منسدلة منها أصابعه تلك التي تهبني فرصة لأقبلها فأحصل على أمان قد غاب عني لساعات. «وينك من غير شر؟» كان سؤاله هذا يدفعني إلى مواجهة الحياة من جديد، تملؤني القوة لأهزم كل ما يعترض طريقي. غاب سؤاله وأخذ معه الأمان كله.

النجر وصدى صليله المرتد تائهاً بين الجدران، وعصا أبي المعلّقة، رائحة القهوة والهيل تعانق السدو، وأباريق شاي والدِلال المصفوفة بانتظام، وأشعة الشمس المتساقطة على حبات التمر، وشماغ أبي الداكن على المسند الذي كان يحظى بأنفاسه الطاهرة في الشتاء.. ما زالت ذاكرتي تحتفظ بأحاديث كبار السن ونحنحتهم، وعبور ظل الحصني على وجهي قبل دخوله المجلس، وصوت السبحة بين أصابع جد سلمى، والنعاس في عيني سعيد أبو حسين ورائحة عطره، كل هذا يحضر أمامي الآن، عائداً بسرعة من مسافة بعيدة جداً كانت تتوارى خلف الوقت، لقد عبرتها بمفردي، كانت مسافة موحشة ومتعبة خطفت مني عنوة كل اللحظات الجميلة ولم تقدر ساعة الكاسيو التي أهداني إياها أبي أن تستردّها..

عدت الآن، ولم أعد إنجليزياً يا أبي، أنا عربي يملؤني الحلم، تلحقني الهزائم لضعفي وخيانتي، لانكساري الدائم وجمودي، لجهلي وفسادي الذي يلتصق باسمي أينما ذهبت.

لم أجد طريقة مثلى كما هي في مخيلتي لأعيش كما أريد، لا أستطيع أن أبقى مختلفاً، لا أستطيع الانتصار إن لم أكن فاسداً.. كنت على ما يرام قبل أن أجعل من هذا العالم فكرة تدور في رأسي، بعد أن قمت بتقليبه وتشريحه لأجد فيه حجة أقنع بها نفسي على أن الحياة صالحة للعيش وسط هذا المجتمع الذي لا يعرف قيمته إلا من خلال البسطاء، بإضعافهم وإذلالهم واستحقارهم، ببغضه الذي لا يترك قلبه لحظة واحدة حتى يتلذذ بسقوطهم أمامه.. حتى أنا أُصبت بالعدوى المميتة.. أسير بين الناس وكأنني خُلقت جاهلاً بينهم أو كبقعة دنس تهرب من الطهارة..

المثقف ليس ملائكياً. هو إنسان، يصارع نفسه وينغمس في فوضى الحياة.. يحاول أن يقفز عالياً ليقتطف فكرة من السماء اسمها تغيير، ويرتكب خطأ الحلم بمحو الفساد والجهل كله من قلب وطنه..

عملت على أن أكون مخلصاً في دوري كمثقف ولكن لم يساعدني هذا المجتمع الذي أنتمي إليه لأبقى صالحاً. مازلت أتذكر الحصني، ذلك العجوز المنحني ظهره، حينما قال لي: «إن لم تكف عما تقول ستندم طوال حياتك لمحاربة العرب لك» كان صادقاً، فأفكاري التي أحملها لا يمكن للواقع

أن يقبلها، ستقطع طريق فسادهم الذي يطعمون بعضهم منه، سيموتون جوعاً وقهراً على فقدانهم سلطاتهم التي بها يحكمون الناس كيفما أرادوا.. لقد كنت مغفلاً حين ظننت أنني سأهزمهم دفعة واحدة، وأنني سأمنح الناس حرية التفكير في حياتهم.. في منحها قيمة حقيقية.. في تشكيل واقعهم من خلال كتب ومقالات ولقاءات أو من خلال اتحاد يجمعهم ويدفعهم بقوة نحو إثبات وجودهم على هذه الأرض الذي باتت للكبار فقط.. أنا صغير مهما كبرت، وفاسد مهما ادعيت النقاء.. أنا بينهم هنا، معهم في كل مكان..

سأحاول من جديد لأنجو بدوري كمثقف وأجعل مجلس أبي مقراً لتجمع المثقفين، وأعود إليه.. إلى ذاك الصباح بصليل النجر ورائحة القهوة والهيل كل يوم كما كان يفعل أبي.

6

تزوجتُ سلمى. كان احتفالاً تاريخياً جمعني بها في منزل واحد. أعظم يوم في حياتي.

«هذا الجمال.. هذا الحب معي الآن!» همست برقة الحلم وهي تضع كفيها الناعمتين على وجهي. كان الفرح يصعد بها، وقفت على أصابع قدميها تُفرد ذراعيها كجناحين مستعدة للتحليق. كانت كطفلة تبتسم عدلاً بعد أن ظلمتها الحياة. سارت إلى الخلف تدور بجسدها مرتدية الثوب الأبيض، وتوقفت فجأة مستديرة بظهرها تمشي على مهل. ترنحت تحاول أن توازن جسدها حتى لا تسقط، ومدت يديها إلى الحائط لتستند عليه، فسقطت، ركضتُ إليها. ضحكتْ تمسك بكفي تقرّبني إليها، تنظر إليّ بلذة الغرق في الحب، همست تقول: «هل علمت الآن ماذا فعل بي البعد عنك لخطوات قليلة.. أحبك».

الحب هو ملاذ الحياة المليئة بالمتاعب. هذا الشقاء الذي أحياه، نعم.. أنا من تسببت به لنفسي، مشيت بقدمي هاتين إليه، كنت أبحث عن الوعي لأثبت لنفسي بأنني قادر على أن أقول لا أمام كل القناعات المزيفة التي يحملها الناس، أن أرفض السير بجانبهم أو خلفهم أو أكون أحد الذين يموتون دون سبب يستحق، ألا أنهي حياتي هذه التي هي ملكي وحدي من أجل أن ينتصر الآخر بزيفه ونفاقه. هذا الحب الآن هو الوحيد القادر على أن يحميني من الألم، أن يبعدني عن الأفكار التي دائماً ما تثير الفوضى في رأسي، أن أقول لا بقوة أمام كرسي فاسد.. أن أحب يعني أنا على قيد الحياة.

طويل عريض المنكبين بشماغ منسدلة أطرافه من على رأسه، وثوب أبيض فضفاض. بشرته بيضاء وعلى خده الأيمن شامة كبيرة، يخلو وجهه من الشعر. جاء بخطوات طويلة مسرعة يطوي على ذراعه بشتاً أسود، كان خالد يطفئ أنوار المجلس بعد اجتماع عقده مع العم إبراهيم والسيد خليل.

«ستُمنح الكثير من المال.. عليك أن تبدأ» قال الرجل بصوته الثخين. قلّب خالد تفكيره. وبعد ساعات من الحديث معه، خرج الرجل إلى سيارته الفارهة، قال له خالد من بعيد: «لابد أن أقابل كبيرك أولاً».

لم ينم خالد طوال الليل، وكانت سلمى تنتظر منه أن يقول لها عما حدث معه اليوم كما هي العادة، ولكنه ظل صامتاً. وفي الصباح الباكر خرج خالد إلى المجلس يدق النجر معلناً عن بدء أول يوم له في 3 يناير 2006م.

اجتمع أصدقاؤه في المجلس، العم إبراهيم والسيد خليل وثلاثون رجلاً يتبادلون الأفكار للبدء في إكمال مسيرتهم. وبعد صمت بدا على خالد طوال الوقت قال بنبرة ارتعاش:

- سأقوم بترشيح نفسي لانتخابات الاتحاد الثقافي.

التفت بعض الجالسين إلى بعضهم باستغراب، قال أحدهم:

- هل عليك أن تخوض هذه التجربة مرة أخرى؟

قال خالد:

- نعم، لن أتوقف.

أبدى العم إبراهيم استغرابه قائلاً:

- لم نتطرق إلى هذا الموضوع البارحة!

أيده السيد خليل، فقال خالد:

- لقد قررت للتو..

قال خليل:

- أمامنا سنتان لنتحدث في هذا الأمر..

قاطعه العم إبراهيم:

- لا أعتقد أننا سنصل بعد عودة الاتحاد بقرار من الوزارة وتولي الحكومة أمره..

لم يجب خالد، وظل صامتاً، وبعد ساعات. نهض العم إبراهيم واتبعه البقية، وبقي خالد جالساً وحده في المجلس.

7

لا أرى أنه بإمكان أحد أن يعمل في هذه البلاد دون أن يدخل في دائرة الفساد، فهي الدائرة الوحيدة التي من خلالها يمكنك أن تحقق الكثير من التغيير، وحتى إن اعتليت المناصب الكبرى في القطاعات سيتعلّق أمرك بنائب في البرلمان أو بوكيل وزارة أو وزير وبمن هو أعلى منهم بكثير أو من يقف على الدوام في مصاف الحكومة، ليس لأحد الحرية في اتخاذ قرار يدفع إلى التغيير والإصلاح. المواطن سيبقى منصاعاً للأوامر مهما بلغ من مكانة في المجتمع، هناك من يعلوه رغم أفكاره وطموحاته. وعلى الرغم من الفوضى العارمة الذي يحدثها الفساد وباختيار من الشعب إلا أن ذلك كان يظهر بصورة نقيّة وبدفاع مستميت عن حالنا المرضي.

بعدما حظيت بشعبية كبيرة في البلاد، وفزت بعدد هائل من المؤيدين لأفكاري، جاءني رجل البشت الأسود رسولاً من الحكومة راغباً في أن أكون محل اهتمام أكبر وأعيد خوض تجربة الاتحاد الثقافي الذي سينتهي أمر رئيسه قريباً على يد الحكومة. أرادني هذه المرة بأن أصبح موالياً للحكومة داعماً لها في قراراتها. عرض علي مبلغاً ضخماً تسهيلاً لعملية الانتخابات وإغواء المثقفين وتلبية مطالبهم واحتياجاتهم دون عرقلة. كان يدفعني رجل البشت إلى العمل على تمرير الأفكار التي أحملها دون معارضة للحكومة والتدخل في شؤونها بشكل مباشر وعلني، قال لي بطريقة مهذبة، بأن المال هو الوحيد الذي ننال به كل شيء،

وفهمت منه أن تلك المبادئ أيضاً تُشترى، وحينها سيكون الأمر سهلاً جداً عليّ، فليس بالضرورة أن أواجه مجتمعاً بأكمله لأجل إصلاحهم. قال لي: «فز بحياتك وتخلّ عن صغرك.. كن كبيراً.»

عاد إليّ رجل البشت بعد أسبوع. مد يده يناولني الشيك. فأخذته منه، وراح يعدني بالكثير. ملايين من الدنانير في يدي وأنا وحيد في مجلس أبي.

جلس خالد طوال الليل في مجلس أبيه يفكر، ممسكاً بيد النجر يدقه، مردداً: «كرسي.. خالد.. صغير. كرسي.. خالد.. صغير»

الفصل الأخير

2015

1

دخل خالد المنزل في المساء وهو يحمل في يده كيساً من الفواكه. كانت عيناه حمراوين، رابطاً رأسه بشماغه بقوة ويتنفس بصعوبة. رمى الكيس على الأريكة ودفع بنفسه إلى السرير مترنّحاً، فأسقط جسده وهو يقول: «رأسي سينفجر» سرت إليه بثقل بطني المنتفخ لأبحث معه عن طريقة للتخلص من الصداع، طلب مني أن أبقي عليه ملابسه وأنا أحاول انتزاعها ليأخذ قسطاً من الراحة. أجابني وهو يدفع بالحروف عنوة من بين شفتيه بعد إلحاحي بالسؤال عن سبب حالته هذه: «لا أدري، اصطدمت بسور مركز ثقافي.. اصطدام بسيط جداً.. ارتد رأسي منه فآلمني عنقي قليلاً حتى انتشر الألم في سائر جسدي وأنا أستمع إلى المحاضرة» طلبت منه الذهاب إلى المستشفى، رفض من شدة التعب وأكد لي بأن علاجه هو النوم. وضعت الغطاء عليه وألحقته بقبلة وخرجت من الغرفة.

وفي ساعة متأخرة من الليل، ألقيت جسدي بجانبه على السرير، أضع كفي على رأسه برفق، شعرت بنبضه السريع، أرخيت يدي عنه وأبقيت عينيّ مفتوحتين أنظر إلى وجهه النائم، كان يشع نوراً، وأنفاسه الدافئة تذيب شعور الخوف فيّ. هي تلك الليلة الباردة الوحيدة التي فيها نستلقي بجمود

كغريبين دون أن تلتف أذرعنا حول جسدينا. استدار بجسده الثقيل ينام على ظهره واضعاً كفيه على صدره. رفعت رأسي قليلاً لأرى إن كان مستيقظاً أم لا. بدأ يتلفّظ بكلمات غير مفهومة، أمسكت من بينها جملة هاربة قالها بصوت عال: «الوقت..».

أزحت الغطاء عنه قليلاً بعد أن نَدِيَ جبينه. عدت برأسي إلى الوسادة أتكوّر على بعضي وكأنني طفلة تبحث عن أمان قد سُلب منها عنوة. غفوت لا شعورياً.

استيقظت على سقوط أشعة الشمس الباردة على عينيّ، واستدرت بوجهي بسرعة أنظر إلى خالد. لم يتحرك، وما زالت كفاه على صدره، كان جامداً، شيء ما غائب عن وجهه. اقتربت منه أمسك برأسه، غاب نبضه، وضعت رأسي على صدره، لم يكن ينبض كذلك. فأرخيت عنقي. كان جسده رطباً. ضممته بذراعي أهمس: «استيقظ يا خالد.. المجلس وأصدقاؤك في انتظارك، قم ودق النجر بيدك.. لقد تأخرت..».

بكيت بحرقة دون صوت. مات خالد، في صباح يوم الأحد 15 يناير من عام 2006م، اليوم الذي أعلن فيه عن وفاة الشيخ جابر الأحمد الصباح. كان يوماً كئيباً لم أقدر على تحمّله، بت فيه كمتشردة لا مأوى لها. الحزن يسكن الكويت. أخبرني الطبيب بأن خالد كان يعاني من نزيف في المخ، وأخبرته عن حادثه البسيط الذي تعرض له، فأكد لي بأن الاصطدام هو السبب وكان عليه مراجعة الطبيب. مات خالد في تلك الليلة التي جاءني بها وهو يحمل لي ما اشتهته نفسي من الفواكه، كنا على اتفاق مسبق أن نجلس لاختيار اسم لطفلنا البالغ في

بطني سبعة أشهر. كان يمازحني بأنه سيسميه صلصالاً، لقب أخي الذي لا يستسيغ رؤيته، أو على اسم جدي، وأنه سيولد حينها وفي يده عصا معقوفة، وفي يده الأخرى حاملاً حذاءه الممتلئ بالماء البارد.

أسميته خالد. يبلغ خالد اليوم العاشرة من العمر، ودائماً ما يجرني إلى دوامة الأسئلة عن أبيه، باحثاً عنه أثناء تكريم الطلبة الفائقين، يقول له الأطفال: «هل أبوك امرأة!»

2

مات خالد تاركاً خلفه الكثير من الحب، تلج روحه فيّ.. عالقة أنفاسه في صدري، ولمسات يده على وجهي، إنه هنا في داخلي ينبض، ويتجوّل في رأسي، ممتزج بي، معي أينما ذهب، وبماذا نطقت.. إنني هو.. أقضي وقتي في مكتبته الضخمة، إنها ملجئي الوحيد عن صخب العالم بعد رحيله. أقرأ كل ما كتبه في دفاتره النائمة، ملاحظاته وأفكاره ومذكراته، وما يود فعله في الشهر القادم، واضعاً خطته في كل شيء، رؤيته وتحليلاته التي لا تهدأ، إنه عاشق القلم، حتى في كتابته تلك يخاطب نفسه.

لم ينس خالد البوح لي بكل تفاصيل حياته التي لم يبدأها معي، حتى تلك التي يظن بأنها قد تُزعجني أو ترسم عنه انطباعاً سيئاً فيّ، كنت بالنسبة إليه روحه التي لا يمكن أن يخفي عنها شيئاً، وإن كلفه ذلك الألم،

كتلك الظنون التي تدور في خلد الإنسان، وفور البوح بها يصبح تحت مشرط حاد يقطع كل أوصال العلاقة.

«هل قرأ أبي كل هذه الكتب؟» قال ابني خالد بدهشة تملأ عينيه وهو يشير بسبابته إلى الكتب الملقاة على الأرفف من حوله. كانت بعض أسئلته تُضحكني، وغالباً ما كانت ترميني في ورطة لا أجد لنفسي النجاة منها سوى بطريقة تليق بي كأم تجيد التصرف مع طفلها. أسئلته لا تهدأ، غريبة ومتتالية، سريعة لا تتوقف، ومن خلالها أعيد التفكير في كل فكرة كنت أظن أنني أحملها على صواب، أو أملك الاكتفاء بالتفكير بها، فأقف عند حد يعني لي نهاية مطافها، أو أن حجمها يكفي أن تقف عليه، فإن كبرت ستنفجر ميّتة.

«لماذا عليّ أن أختار من بين البدائل التي تتيحينها لي من الحلوى! أريد غير هذه التي أمامي» سؤال كهذا من طفلي يرغمني على اقتحام رأسي والتفتيش عن إجابة قابعة في ظلام العمق. وكأنني أستخرج من باطنه فكرة ثمينة لم أحملها من قبل.

نحن لا نفكر سوى في الخيارات أمامنا، لا نستطيع الخروج عن حدودها ونطوّق أفكارنا بها، نضعف أمامها، على الرغم من رحابة العالم وسعته. هذا ما كان يقوله لي خالد، حين يأتي بما لم تمنح له الحياة ويقع في ورطة الاختيارات أمام المجتمع لاتخاذ قراره، كان يرى بأن عليه أن يخرج دائماً عن الحدود التي يقبلها المجتمع على نفسه.

لقد عزم خالد على أن يكون شريكاً في مكتبة العم إبراهيم، وكان القارئ ينجذب إلى تلك الكتب البسيطة التقليدية والتجارية التي لم ير بأن أصحابها كتّاب حقيقيون وعليهم الخروج عن التقليدية في كتاباتهم، أو لا يملكون البراعة في خلق إبداع حقيقي يتوجب عليهم نشره. قام بطباعة ما يقارب خمسين كتاباً مترجماً من جميع اللغات، وكتباً أخرى عربية لم تحظ بها المكتبات والقرّاء، كان هدفه الوصول إلى الفكر المختلف واكتشافه لا تقليده، كتب لم يعتد عليها القرّاء، فأصبحت مع مرور الوقت كتباً مهمة يحتاجها كل قارئ مقبلين بشغف على اقتنائها، وهذا ما جعل بعض الكتّاب ينظرون إليها بأنها أرقى بكثير مما كانوا ينشرونه، فبقاؤهم في دائرة التراث والتاريخ المعاصر وغيرها من الروايات الجامدة كانت سبباً في الركود الثقافي، كانوا يظنون بأنهم حين يزهون بطلاء ثقافي سيصبحون في مكانة راقية، إنه مجرد طلاء.. فهم في عالم الكتابة لا يتغيّرون ولا تطرأ عليهم فكرة تقفز بهم إلى عالم أكثر رحابة مما هم عليه. اختار خالد الخروج، وصنع ثقباً في دائرة القراءة ليخرج القرّاء منها والتعرف على العالم بطريقة ذكية.

كنت أجلس على طاولتنا في الجامعة منتظرة قدوم خالد. تأخر قليلاً، وانشغلت في قراءة كتاب برفقتي، رفعت رأسي عنه وإذا بخالد يسير تجاهي بخطى غريبة رافعاً قدميه عن الأرض برقة ويهز وركيه كأنه يخشى أن يؤلم الأرض بخطواته. أثار استغرابي، وعقدت حاجبيّ أمد بصري لأتأكد بأنه هو،

وفور وصوله وقف أمامي يرفع كفه رخواً بسلامه ويميل بعنقه قليلاً وهو يقول بنعومة: «Hi». ضحكت حتى تصلّبت معدتي، بادلني الضحك وهو يضرب على الطاولة.

بعض المترجمين العرب يعانون عسر فهم الترجمة على الرغم من أنها عملية تُحوّل لغة إلى أخرى. هذه اللغة تؤثر على سلوكيات البعض وتعاملهم مع الأشياء، وأيضاً تُحدث التغيير في اختيارهم لألبستهم.. لم أصل إلى إجابة يا سلمى بعد أن عمقت التفكير فيمن يؤثر على الآخر، اللغة أَم الإنسان!

كان يرى في أن اللهجة البدوية على سبيل المثال جامدة، أما لهجة الحاضرة ففيها القليل من الرخاوة. كما أن الإنسان في أي لغة كانت يعبر عن انفعاله بجمود أو رخاوة، كتعبيره عن الاستياء فيصدر صوتاً ثخيناً أما في حالة الاستعطاف فيبدو صوته رقيقاً، هذا في حالات الانفعال. أما في الترجمة من لغة إلى أخرى وفي جميع الحالات لم يفهم خالد لماذا يصبح الرجل آنسة إن تحدث باللغة الإنجليزية، وتبقى الآنسة آنسة أكثر! على الرغم من أن الإنجليز أنفسهم تكون نبرات أصواتهم صلبة ولا تؤثر على رخاوة أعضائهم كما يحدث هنا مع الكثير.

جلس خالد يفكر وهو يمضغ قطعة من الكاكاو على ظن بأنها تهدئ الأعصاب. سألته عن علاقة الرقي باللغة، رفع يده وقطع الكاكاو تملأ فمه قائلاً: «القومي.. الشعوب واللغة».

ألا توافقيني يا سلمى! على أن التناقض واضح فيمن يظنون بأنهم سيُحسبون على شعوب سامية لمجرد التلفظ بكلمات إنجليزية وحشو حديثهم بها في جملة سريعة، هنا يضيء فوق رؤوس من يسمعه مصباح بأن الذي أمامهم هو إنسان راق ومتحضر وعليهم معاملته بسمو، أيضاً عليهم تقليده لينالوا شرف الانتماء لهذا الشعب السامي. وحين نسأل أحدهم عن سبب هذا الحشو في كلماته يحمل حجته في فمه وهي أن العربية اندثرت وليست ذا استعمال حقيقي بيننا، إننا نتعامل باللهجات المختلفة والمتنوعة، وأن ذلك ما هو إلا عيب في تكويننا الثقافي ولم نعمل عليه، بل ورثناه ونستورده من آبائنا، وتم التأثير علينا وكأننا مغيبون، والتغييب هذا مضحك جداً بالنسبة لي، حين نعرف بأننا مغيبون حقاً ولا نخطو خطوة واحدة إلى التغيير. وما يجعل حجة حضرة الراقي في ظنه كقنبلة تبعثر أشلاء السؤال حين يقول بأن المتسبب في ذلك هو الحكومات، وهي مَن تزيد تفكك اللغة العربية، لأنها لا تعمل على تدريس الأبناء لغة عربية أصيلة. ولو رمينا حبالنا على عنق حياة هذا المتلغون لتتبع سيرَه واكتشاف خطواته المثالية إلى حد السحر، لوجدناه يغسل يديه كل ليلة في حوض واحد مع الحكومات بعد تناول وليمة عشاء على شرف التناقض.

لم ينجح الكاكاو في تهدئة خالد، بل أثار غضبه إلى حد ساخر. توقّف وهو يقول: «سأعمل الآن على مشهد تمثيلي من مسرحية متخيلة ينقل لك حال الفكرة» قلت له وأنا فرحة بفكرته: «سأستمتع حتماً». عاد إلى الخلف واستدار بسرعة

منحيناً بقامته واضعاً كفه على صدره إشارة للترحيب والبدء، فقمت بدوري أصفق. راح يؤدي دور شخصين، أحدهما طفل والآخر معلمة، متقناً صوتيهما وحركتيهما، يؤدي دور المعلمة ممسكاً بالقلم، ينتهي، ويركض يقف في المقابل ليؤدي دور الطفل مكتفياً بوضع إبهامه في فمه.

تقول المعلمة بلطف:

- صباح الخير يا طفلي العزيز.. ما هو إفطارك اليوم؟

أجاب الطفل وهو يمد الحروف بصوت عال:

- corn flakes يا معلمتي.

غضبت المعلمة تشير بقلمها إليه:

- قل رقائق الذرة.. أنت عربي.

ارتعش الطفل واضعاً إبهامه في فمه، فقال بخوف:

- لقد قرأتها على العلبة باللغة العربية.

اقتربت المعلمة من الطفل تنحني إليه، وهي تقول بأسف:

- ليس ذنبك.. إنها الحكومة.

ضحكنا بقوة، وامتد ضحكنا لدقائق طويلة. قال خالد معبراً عن أسفه تجاه الثقافة حين نرمي خللها على الحكومة فقط ولا ننظر لأنفسنا لننتقدها، بل نكابر إلى حد الغثيان، وكأن الأبناء ليسوا من مسؤولياتنا، وهو يقول الأبناء هنا لأن الأجيال في نظره لا تنمو مع صوف الأغنام أو بين بيض الأسماك، بل من الأجيال التي هي منها.

كان كثير التساؤل عن الثقافة والمثقف ويستغرب من مدعيها. أين الثقافة إن كانت الورطة ذاتها تمد يدها مشيرة إلى النجاة، ونحن في كل أمر نشعر بأننا نخفي خللاً ما في أنفسنا نتّهم الحكومة، العقدة في هذا العقل الذي لم يعرف بعد كيف يجيب عن نفسه.

وضع خالد ساقه على الأخرى، وهو يقول: «الحكومة كشخص يقود أشخاصاً في رحلة أدغال، وأضاع الطريق، ولا يحسن التصرف.. ربما هو أشبه بذلك.. ربما» صمت يفكر، قلت: «الحكومة ليست على حق دائماً..» قال: «الحكومة ليست حكومة غالباً.. عبثها من عبث الذين يتولون أمور الشعب، وهذا لا يعني بأننا نسلم أمرنا لهم..» صمت وقال بسخرية: «علينا أن نقول الحكومة حكومة، فلا يوجد اسم أسوأ من ذلك على مر التاريخ!»

«لم أجد قارئاً حقيقياً نافعاً أكثر من ذاك الذي يعصر الأفكار من الكتاب ليحصل على خلاصتها، ويرميها في طريق فكره، فإن وجدها تضيء سار على ضوئها حتى يصل إلى نهاية، فيجلس يفتش عن صلاحية العيش فيها، وإن لم يجدها كذلك أعلن عن خللها، محاولاً إصلاحها أو التخلص منها.. مثل هذا القارئ ينمو ويصبح مثقفاً..» هذا هو القارئ في رأي خالد، وجدت الجملة تلك في أحد دفاتره.

استقبل خالد شخصاً يقرأ له كتاباً كان يراه من أفضل الكتب عالمياً. أثناء قراءة الشخص لاحظ خالد أمراً غريباً يحدثه القارئ، كان يقرأ بصوت عال وهو يشير بسبابته إلى السطر ليريه خالد. تكرر ذلك عدة مرات، فعاد يقرأ بصوته العالي. اقترب خالد من السطر لينظر إليه عن قرب، فمد يده يمسك بإصبع القارئ فجأة كأنه يصطاد حشرة مؤذية، قال له: «توقف هنا..» ابتسم القارئ قائلاً: «أعلم أنك لن تصدق ما قرأت حتى أعيد الجملة مراراً» قال خالد: «بل عليك أن تقرأ ما هو مكتوب.. أنت تقول ما ليس مكتوباً هنا والآن أنا متأكد..» حاول القارئ أن يثبت عكس ملاحظة خالد، ولكنه لم ينجح، فأعطاه خالد فرصة بعد أن أثار شكه في نفسه. تكرر معه ما حدث، قال له خالد: «كيف تستطيع أن تقرأ ما ليس مكتوباً وتظن بأنك تقرأه!» قال القارئ: «ماذا قلت! لم أفهم». بعد ساعة من القراءة انصرف خالد عنه متعذراً بالنعاس.

حكى لي خالد ما جرى له، كاد يجن من تلك الحالة التي لا يمكن أن يصدقها أحد، ومن هنا دخل في دوامة التحليل قائلاً: «هذا القارئ يقرأ من الكتاب مباشرة ولكن لا ينطق بما يقرأ، بل كان ينقل فهمه مباشرة دون أن يعي ذلك، لقد كان كلامه مختلفاً ماعدا بعض الكلمات. فما بالنا ببقية القرّاء حين يقرؤون وكل قارئ يختلف في فهمه عن الآخر.. ويعلن بعضهم بأنه على حق..».

الأمر يختلف الآن عن سنوات خالد، لقد أصبحت القراءة عبئاً على نفسها، في حين أنه من الممكن أن تكون أكثر نقاء، فالباحث عن صورة نقية لنفسه بعيداً عن معناها، ما عليه إلا أن يُمسك بكتاب ويقرأ الجُمل فيه على أي طريقة يريدها، وإن كانت قراءته تلك للتظاهر أو فهم ما يريد فهمه منها، فيكفيه فخراً أن القراءة تشير لرقيه. القراءة شقاء في مجتمعاتنا، لأن دور القارئ يفوق قدراتهم وظروف بيئتهم وأحوالها. لذلك حوّل القارئ قراءته إلى نوع من الترف أو التسلية دون أن يكون عائداً على نفسه ومجتمعه بفائدة ولا يفكر إطلاقاً بأنه مع مرور الوقت سيصبح مثقفاً ويقوى دوره في مجتمعه. الآن يكتفي القارئ بالقراءة ليعلن بسذاجة أنه مثقف.

أتذكر دخولي معرض الكتاب برفقة خالد وهو يحمل نسخاً من كتابه الأول في أكياس بقالة محاولاً توزيعها على دور النشر، كان البعض يرفضها دون سبب معلن. وبعد ساعات من التوزيع، عاد إليهم في اليوم التالي يجمع ربحه منهم، كان قليلاً جداً، فقام خالد بجمع الأموال في صندوق كتب عليه «هذا ربح الكاتب». كان بيعه لثلاثين نسخة تعني أنه في مكانة لم يصلها كاتب من قبل، فقد صار واسع الانتشار في الوسط الثقافي. أما الآن، النسخ بالآلاف تباع بطريقة غريبة جداً، والتسويق لها صار على أنها سلعة مستهلكة، كالصابون مثلاً، أو كقطع من الحلوى لذيذة اللحظة، أو أي شيء سيتم التخلص منه قريباً لعدم فائدته. وما إن أشرع بقراءة أحد تلك الكتب لأرى ما كتب فيها صاحبها من فكر جعلت نسخه تنتشر

بتلك السرعة، حتى أجد مكان الأفكار خاوياً والجمل ترتعش ركاكة، وما أكثر الكتب التي تدعي بأن الحب هو أن نقول أحبك فقط ونتغزّل بكلمات جميلة، كأن أولئك الشاعريين في كتاباتهم يبحثون عن إقامة حفلة راقصة في قلب مراهقة لم تنضج بعد، ليستغلوا مشاعرها الناضبة ويسقوها بكلمات الابتذال، ومنهن من تظن أن تلك الكلمات موجهة إليها دون غيرها من النساء، أو تلك الروايات التي أصبحت تنال الجوائز العربية ولم أجد فيها ما يلامس واقعنا، أو صاحبها لم يشعر بها حقاً، فقط يبحث عن قصة مثالية ليصف بجانب المناصرين للإنسانية، مثل ذاك الروائي الذي جاء بخبره خالد، حين قال بأن أحد الروائيين يتحدث عن الفقراء وفي عنقه سلسلة من ذهب، وأخرى لا تهدأ في رواياتها إلا وتحدثت عن الحرية وفقدها في كل موضع من روايتها، وهي متزوجة أربع مرات وفي كل نهاية أسبوع تزور بلدة حتى جابت العالم كله.. إنه فساد يمارس باسم الأدب.

ألّف خالد سبعة كتب، كان من بينها ما أثار غضب البعض من القرّاء والكتّاب. كتاب تحدث فيه عن الحرية التي لا يرى فيها ما يسمى حرية مطلقة إلا عند الكائنات الحيوانية، وتحدث عن القناعة عند بعض النساء، فاستغربت رأيه فيه وناقشته بذلك بعد انتهائي من قراءته، لقد وجدت في حديثه ما يمكنني التمسك به حقاً. القناعة عند بعض النساء العربيات ليست قناعة أصيلة، إنها متوارثة، وضرب خالد مثالاً عند المجتمعات الخليجية في الألبسة، وأثناء قراءتي له اجتاحتني

ذكرى لموقف تعرضت إليه قبل لقائي بخالد. قال لي أحدهم وهو يعبر بجانبي في السوق: «استري نفسك» استدرت إليه وسرت بسرعة لأقف في وجهه، لاسنته وشعرت بخوفه، فانصرفت عنه. كان ينظر إليّ بأنني لست مستترة لأنني لم أرتد العباءة، فقد تخلصت منها بعد طلاقي من وحيد القرن. هذا ما يؤكد لي بأن بعض الرجال يتوارثون أيضاً جمودهم، ويظنون بأن الستر يكون داخل منظومتهم المجتمعية المليئة بالعبث والازدواجية، هم بعض الرجال أيضاً لا يملكون قناعة أصيلة. فعلاً ليس ارتداء العباءة قناعة من النساء إلا إن كان ذلك يعرض شرفها لسوء سمعة!

قال خالد: «المرأة التي ترتدي الحجاب دون إيمان به عليها أن تنتزعه حالاً..» كان خالد ينتقد بطريقة غريبة أولئك النساء اللاتي يقمن بانتزاع الحجاب لحظة اكتشافهن بأنهن يتبعن موروثاً دون مبرر، فيكرهن ارتداء الحجاب ومن ترتديه أيضاً من النساء لأنه لم يأت على إيمان منهن، بل هن خانعات لتقاليد المجتمع..

«إنهن من عشائر الجمود..» قال وهو يمد شفتيه إلى الممص يشفط العصير. أردف: «إن كانت المحجبة صادقة في فكرة نزع الحجاب، عليها أن تخوض التجربة وتعيد التفكير في العودة لارتدائه أو البقاء على نزعه، ومن ثم تقرر بإيمان.. أما انتزاعه والادعاء بأنها تحررت، أعتقد أنها نسيت أن تتحرر من نفسها أولاً، وأصبحت مقيّدة بأفكار مضادة للحجاب ثانياً.. وأن سبب ارتدائها الحجاب كان طوعاً لنصف مجتمعها وانتزاعه أيضاً طوعاً للنصف الآخر منه.. أين دورها إذن! وأين نجد إيمانها بأفكارها وسلوكها!»

بعد انتهائه من الحديث، استمر يشرب عصير الليمون أمامه، رفع رأسه نحوي، رآني أكوّر الحجاب بين قبضتي، وخصلات شعري تلاحق الهواء. احمر وجهه، والتفت يرى الطلبة المارين من حولنا.. عاد بظهره إلى الكرسي. وأخذ يحدق بي طويلاً. ابتسم، قال: «الآن عليك البحث عن الحقيقة بنفسك، والإيمان بها».

ارتديت الحجاب في لحظتها. نعم أنا على قناعة تامة الآن وأقف مع اللاتي لسن بحاجة ليرى شعورهن أحد سوى الذين أحبوهن صدقاً، فلا أحد يستحق ذلك في هذا المكان الذي نحن فيه، وإن كانت قناعتي جهلاً.. فالحجاب أصبح مرتبطاً بالبيئة التي نحن فيها، وبالطرف الآخر من هذه الكائنات التي تسمى رجالاً..

- لقد انتهيت من المسودة، وأرغب في أن تطّلع عليها.

شد قميصه الأبيض من الأمام وهو جالس في مكتبه الفخم. قال ممسكاً بنظارته:

- أجل يا خالد.. عفواً اسمك خالد أليس كذلك!

ابتسم بخجل:

- نعم خالد الذي طلب مقابلتك الأسبوع الماضي..

قال بثقل صوته:

- نعم.. نعم أعرفك.. قل لي ما هي المسودة؟

- رواية

وضع ساقه على الأخرى، ومد يده نحو أعواد الكبريت ليشعل الغليون. صمت لدقائق يأخذ نفساً، فقال:

- رواية.. عليك أن تفهم ما هي الرواية أولاً..

- أنا أعلم ما هي الرواية، أردت أن تطلع على المسودة..

قاطعني:

- لتعرف رأيي بها أليس كذلك؟

أومأت برأسي بصحة ما يقول. قال بعد نفثه الدخان:

- ضعها على المكتب. سأوافيك برأيي بعد يومين.

بعد أيام عدت إليه، وجدته يرتدي لباسه الذي رأيته به. رحب بجمود، فأشار إليّ أن أجلس. كانت المسودة على المكتب أمامه، قال:

- من علّمك فنون الكتابة؟

- لا أحد.

قال بغرور، وهو يضبط ياقته:

- ابحث عن أستاذ يعلّمك.

احمر وجهي، وشعرت بأنني أغرق في بحر ساخن. قلت ساخراً:

- لماذا يا طلسم؟

كان يود غرس القلم في عنقي. إنه يبغض لقب طلسم الذي اشتهر به عند البعض. قال لي وعروقه تكاد تنفجر في عنقه:

- اخرج يا قليل الأدب..

أخذت مسودتي وخرجت وأنا ألحن قائلاً: «طلسم طلسم يا طلسم..»

طلبت من العم إبراهيم أن يخبرني عن حكاية خالد مع طلسم هذا، فقد قابله خالد قبل أن يلتقي بالعم إبراهيم. «يا سلمى، أتذكر كيف كان خالد يقلّده عندما حكي لي عن زيارته له. كانت أنفاسي تنقطع من شدة الضحك.»

لقد أخبرني خالد عنه من قبل، كنت أحب سماع الحكاية من العم إبراهيم لأُضحكه بعد وفاة خالد وحزنه الشديد عليه. لم يرق لخالد هذا النمط من الشخصيات الأدبية التي تبحث عن الأستذة، ليس من أجل أن يتفاخروا بتميّز طلّابهم في يوم ما، بل لأنهم يرون بأنهم هم أساتذة التميّز وينتشون بذلك، ومهما علا شأن الطلّاب فلن يتفوقوا في العلو على أساتذتهم الذين يبقون على مستوى مرتفع دائماً عن طلبتهم.. هم الأعلى وحدهم لا غيرهم، وبسهولة الغرور يقول أحدهم: «إنه لجأ لي في يوم ما، لهذا هو متميّز..». ومن لم يلجأ لأحد ممن يرون أنفسهم هامة في الأدب، لن يلتفتوا إليه ولا يلقون إليه بالاً، بل سيتساءلون فيما بينهم: «من هذا، وعلى يد من تعلّم؟»، ويجيب فرعونهم: «أنا لا أُعلّم الرداءة..» كان خالد يرى بأن الحزبية في كل مكان، كما لو أننا في ميدان معركة ومحال أن نخرج منها بسلام.. لقد أصبح الكاتب يبحث عن الشرعية من فراعنة الكتابة! إنها شرعية! كما لو أن الكتابة في أيديهم وحدهم.. إنه سخف!

ها هي مكتبة خالد في منزلنا على ما هي عليه، لم تحدث شيئاً في هذا العالم، مثلها كمثل بقية المكتبات على حالها، يحتلّها جمود القارئ والكاتب. أمر مضحك أن أقول مكتبة في هذا المجتمع، حقاً لا وجود للمكتبة..

ما يؤلمني حقاً وما يزيد من يقيني بأن الحياة قاسية هو أن خالد كان صادقاً، فالصدق أصبح صفة لا تغني الإنسان في حياته. لا يعلم خالد بأن سعيه لتغيير وإصلاح المجتمع قد صار شبيهاً في سنواتنا هذه بنكتة يطلقها الجميع.. إن التغيير عند الفاسدين في تناولهم الفساد فقط، وهو عند التافهين فكرة مستهلكة في جلسات تسلية يضيعون به الوقت في مجلس يجمعهم أو للعمل على إصلاح الشروخ في سمعتهم السيئة عند مجتمعاتهم والادعاء بأنهم صالحون، صادقون، حريصون، أي شيء يثبت دورهم المزيف في المجتمع ليبقى نظيفاً راقياً.. لقد أصبح العالم كمسرح كبير جداً للاستعراضات المثالية..

3

بعد زواجنا دخل خالد المنزل تعباً متدلية أطرافه. جلس على الأريكة سارحاً وكأنه عاد تاركاً رأسه في الخارج، قال لي بصوت منطفئ: «زارني علي». عاد لي بذكرياته إلى مدرسة الشرطة مع صديقه علي الذي غاب عنه منذ أن انتهت الدورة التدريبية.

كنت منشغلاً في إعداد القهوة، رفعت رأسي لأرى صاحب الظل المتسلل إلى المجلس، رأيت علي يقف متنقلاً بنظره بين الجالسين، طرق الباب وهو مفتوح، قال يبتسم: «هل تسمح لي بالدخول يا صديقي؟» نهضت متسمّراً والذاكرة تخطفني إلى الوراء بسرعة عابرة إلى تلك الأيام التي قضيتها برفقة صديقي علي. مددت ذراعيّ إليه دون أن أشعر فجاءني بخطوات طويلة مسرعاً يحتضنني. همس لي: «اشتقت لك يا فلفل.. أعني يا فأر!» ضحكت حتى أدمعت عيناي. راح يصافح الجالسين، كان من بينهم العم إبراهيم والسيد خليل، يصافحهم بسرعة وصوته يرتجف قليلاً: «أهلاً بكم». جلس في المنتصف، وبدا عليه الارتباك. بدأت أُعرّفه على الجالسين: «هذا العم إبراهيم..» قاطعني يقول: «أعرفهم جميعاً.. وذاك هو السيد خليل..» أخذ يعد أسماءهم. أثار استغرابي: «هل تعرفهم من قبل؟» كان العم إبراهيم يحدق في وجهه محاولاً التعرّف عليه، فأشار بيده قائلاً: «لا أتذكر أننا التقينا من قبل..» قلت: «العم إبراهيم ذاكرته تفصيلية لا تهمل شيئاً..» اعتدل علي في جلسته، تعرّق وجهه، وأخذ يقلّب بسبحته بسرعة. قال:

- بعد تخرجنا من الدورة التدريبية تم اختياري في مكافحة الشغب وقمنا بتدريبات خاصة آنذاك حتى مارست عملي دون أحداث سوى تلك الحادثة التي وقعت بين المصريين والبنغاليين عام ١٩٩٩. والأخرى في اعتصامكم.

صاح الجالسون:

- هل كنت تضربنا..؟

قاطعتهم:

- دعوه يُكمل.. أكمل يا علي.

اعتذر مسبقاً عما سيقوله، فقال:

- اجتمع بنا القادة الكبار في الميدان استعداداً لفض اعتصامكم.. كنت أسمعك في المذياع وأراك في التلفاز وأقرأ ما تكتب في الصحف يا خالد.. كانوا يقولون لنا بأن المعتصمين أبناؤنا وإخواننا لا نريد أن نلحق بهم الضرر..

قال خليل باستياء:

- وهل ما فعلتموه بنا كان مزاحاً؟

استرسل علي:

- بعد وقوفنا لساعات أمامكم كان الأمر ألا نتحرك إلا في حالة إحداث شغب.. وبعد أن حانت الساعة الثانية عشرة منتصف الليل أُمرنا بالتحرك دون أن نعرف كيف نتعامل معكم، فأبلغنا بعض القادة ومن دون رضا أن نؤدي واجبنا كما لو أنكم تحدثون شغباً، قال أحد القادة بجمود: «إنهم خارجون عن القانون، وللقانون سيادة وواجبنا المحافظة عليه..» اتجهنا نحوكم، كنت من بينهم أبطئ خطواتي لأتجنب الاصطدام.. وقفت بينكم أُلوّح بعصاي في الهواء دون أن أضرب أحداً.. رأيت خالد. همست لزميلي غاضباً: «أيها الغبي إنه خالد.. لماذا جررته بهذه الطريقة؟ « قال: «هذا واجبي.. وقد أُمرت من القائد بالقبض عليه بعد أن تعرفنا على صورهم» قلت: «هل آذيته؟»

قال مبتسماً: «ضربة خفيفة على الرأس لن تؤثر..»
ركلت وركه ومضيت. آلمني ما حدث يا خالد..

قال لي خالد بأن تدريباتهم في مدرسة الشرطة كانت قاسية، لقد أخبرني بذلك من قبل، وما سمعه من صديقه علي أحزنه جداً، بعد أن أخبره كيف تُدار العمليات بالتفصيل وكأن المواطن عدو لوطنه حين يطالب بالحق! وكيف تتقلّب علاقة المواطنين ببعضهم في نفس الوطن! مثل علي؛ صديق في المجلس وعدو في مكان آخر.. كان خالد يحكي لي متألماً عائداً بالسنوات التي قضاها هباءً في التدريب.. يكرر ندمه دائماً، ويقبض على ثقته بنفسه قائلاً: «لقد تخلصت من الانصياع للأوامر العبثية..»

تحدث خالد بصوت عال يملؤه القهر وهو يقف أمامي في بهو الجامعة قائلاً:

- القانون كلعبة الشطرنج..

قال طالب وهو يعبر بجانب خالد محدقاً فيه:

- القانون حاميك يا رجل..

ظل خالد ينظر إليه وهو يعبر، فقال ساخراً:

- وأرى حامي القانون يرحل أمامي الآن..

ضحكت قابضة على فمي، أكمل خالد قائلاً:

- القانون الحق هو الذي لا يمكن أن يسبب خللاً في المجتمع، ونبيل خالص النقاء من يعمل على تطبيقه، فتطبيقه وحده يثبت بجدارة صلابة سيادته..

قلت له:

- من الذي يطبق القانون؟

قال يشير بسبابته:

- أنا، وأنتِ وهؤلاء الطلبة والدكاترة والجميع.. ولو اكتفيت أنا وحدي لأصبح من المستحيل أن يكون للقانون سيادة.. بإمكاننا أن نعتبر القانون في هذه الحالة كتلك القطعة من القماش المهترئة التي كنت أدس فيها المال.. أنا خالفت القانون، لمخالفة الآخرين له.. كنت مضطراً لفعل ذلك..

قاطعته:

- إذن لا قانون يُطبق..

قال ساخراً:

- لا وجود للقانون ليُطبق..

سحب الكرسي ليجلس، قال:

- اسمعيني.. المجتمعات العربية لا تعرف القانون، منهم من يرفض التقييد دائماً أو يرضى به من أجل منافعه.. المجتمعات العربية قانونها الأعراف والأموال، هذه هي طبيعتها.. العنصرية، الفئوية الحزبية المذهبية الطائفية القبلية.. كل ذلك هو فساد القانون الأول..

كنت أؤيده، فالقانون ليس محل ثقة في البلدان العربية، والانتقائية في تطبيقه أهلكت الشعوب، حتى الصالح يضطر بأن يكون فاسداً، إنه يبحث عن حياته منتصراً..

في هذه الأعوام الأخيرة صارت الغرابة تنازع الحياة. تلك الصحف التي ينتظرها الجميع كانت مفتاح اليوم لمعرفة ما يُدار في هذا العالم، باتت الآن على هواتفنا ميتة تعج بالشتائم والجرائم والإعلانات التي دفعت المجتمع إلى الاهتمام بأشياء لا فائدة منها.

ذات يوم جاء خالد يطرق الباب وهو معيٍ على الهاتف، ففتحت له متوارية خلفه، مد لي يده حاملاً قفص زوجين من العصافير. قال لي: «اخترتها لك أنتِ فقط» سعدت بها. أخرجت رأسي من خلف الباب أنظر إليه بعد صمت، فوجدته ذاهباً إلى سيارته. عاد وهو يدفع من الخلف قفصاً كبيراً جداً، قال لي من بعيد: «انتظري..». فتحت الباب على مصراعيه ليسع القفص، يدفعه وهو يقول: «هذا أيضاً لك» خرج ينتظر مني اتصالاً.

«لقد أطاحوا بالطاغية» قال. «يستحق الإذلال» قلت. كان يعني بحديثه صدام، لقد روى لي حكاية خروجه إلى السعودية مع عائلته أثناء الغزو، كانت مرعبة ومؤلمة. يرى خالد أن التمسك بالسلطة جشع ثمنه دماء الشعوب. حكى لي أيضاً

عـن رأيـه فـي القوميـة وبغـض أبيـه لهـا بعـد أن عاصـر هزيمـة العـرب. يـرى أن الشـعب العربـي عاطفـي ولهـذا هـو متراجـع، شـعب يتأثـر بالعاطفـة ويسـتغل الحـكام ذلـك مـن أجـل بقائهـم في السـلطة. حتى تجرأ البعـض علـى تحويـل فلسـطين إلى لعبة قـذرة، هـذه فلسـطين الحـرة الأبيـة تحولـت إلـى قضيـة سياسـية يمـارس الفسـاد فيهـا بشـاعته ويسـتغلها بعـض الحـكام مـن أجـل التمسـك بالشـعوب والسـيطرة عليهـم. كان خالـد يكـرر دائمـاً أثنـاء حديثـه عـن القوميـة: «فلسـطين جـرح الشـرفاء». يـرى خالـد بـأن فلسـطين انتهـت عنـد الكثيريـن منـذ انتكاسـة العـرب ومـا زال بعـض الحـكام يعزفـون علـى لحـن فلسـطين لإخمـاد غضـب الشـعوب عنهـم. فلسـطين وحدهـا أرض طاهـرة شـاهدة علـى ضعـف العـرب. أمـا القوميـة فاندثـرت بعـد أن كان صـدام آخـر مـن تعلّـق بهـا طيلـة فتـرة حكمـه حتـى اجتـاح الكويـت وأصبحـت كلمـة العـرب لصيقـة بالخيانـة والانهـزام بعـد أن كانـت تحمـل الشـرف والقـوة والأصالـة.

عـاد صـوت خالـد الرقيـق عـن العصافيـر وحبـه لهـم، بعـد سـماعي الألـم يصـرخ عبـر صوتـه عـن العـرب والقوميـة. كان يقـول لـي بأنـه لـم ينتبـه للجمـال فـي العصافيـر إلا بعدمـا رآه فـيّ. طلـب منـي أن أضـع القفصيـن أمامـي وأتأمـل العصافيـر.

- ماذا تشاهدين بالضبط؟

قلت باعتيادية النظر إلى الأشياء:

- قفصاً كبيراً جداً فيه زوجان من العصافير، وقفصاً آخر صغيراً وأيضاً فيه زوجان من العصافير!

أطلق تنهيدة عميقة، فقال:

- حسناً، بماذا تشعرين وأنت تشاهدينها؟

استحضرت شعوري وأنا أنظر إلى العصافير، وقلت بعدما طال صمتي:

- لا أستطيع أن أقول إلا أن الجمال فيهم آسر...

أردفت على عجل:

- لماذا لم تجمع العصافير في قفص كبير وكفى؟

ضحك، فقال:

- هذا ليس شعورك..

كان رأيه لا يقف عند حد، بل يغوص في أعماق الأشياء من حوله ويخرج قابضاً بيده على فكرة لم يستطع أن يأتي بها أحد.. كان يبهرني في كل شيء حتى في صمته الذي يحمل الكثير دون أن يتلفظ بكلمة واحدة، كنت أعلم بأن صمته هذا يبعده عن الواقع الذي يؤلمه، فأزيح بنفسي عنه لكي لا أعيق رحلته مع الصمت، أعلم حينها بأنه في حالة غوص تمتد لدقائق طويلة، وسينتهي منها بحقيقة لا أحد ينازع على بطلانها، بشرط أن يكون صادقاً مع نفسه، حتى انتقاده لنفسه لا يعرف الكذب..

قال لي بأنه لا يمكن جمع العصافير، فهم يختلفون في أنواعهم.. رغم أن جميعهم عصافير. كل من العصافير يعيش في قفص، ولكن الاختلاف هنا بأن تنظر إلى عصافير القفص الكبير بأنها تنعم بحرية تُحسد عليها، وتغريدها يخلق الصدى، بينما هي، عصافير القفص الصغير، لا تتمتع بذلك، فتغريدها يموت فور خروجه. هذا تماماً يماثل نظرة شعوب العالم إلى بعضهم.

لم يعش خالد زمن الهواتف هذه التي نستطيع من خلالها أن نجتمع مع العالم كله، وأن نصل إلى هذا الحد الذي لم نستطع الوصول إليه، لقد كان مستحيلاً علينا التفكير في مثل هذا الذي نعيشه. برامج تجمع الناس من كل حدب وصوب حتى خرجت الشعوب عن ضعفها فأطاحت بحكامها، واندلعت الثورات عن طريق رسائل في الهاتف يشاهدها العالم أجمع. إلا أنني لا أطمئن لذلك الآن، هناك خلل ما يحدث حتماً، أمر خفي ستراه الشعوب بنفسها، أقترب من أن أجزم بذلك. ولكن لا أدري ماذا سيكون حال الثقافة اليوم إن كان خالد حياً ويمسك بهاتف!

أتذكر عودته إليّ بوجهه المتورّم بعد الضرب الذي تعرض له في السجن، كان يبتسم لانتصاره. ماذا لو عاد خالد ورأى الآن السجن يطفح بأصحاب الرأي، وليس للمثقف دور مهم سوى أن يمسك بهاتفه يبعث الرسائل بطريقة مبتذلة أو يقيم محاضرة لا يهتم بشأنها أحد، فوجودهم كما هو غيابهم لا يغيّر شيئاً في هذا المجتمع الميّت، حينها سيعود خالد حتماً إلى مرقده وهو يقول: «الموت في كل مكان..»

4

«ليتعلّم أنني جدته» قالت مرزوقة بنبرة متهالكة. كبرت صديقتي وهي تنظر إلى ابن أخيها يركض أمامها حاملاً لُعبه، كنت أرى في عينيها الدمعة، لم تتزوج لتنجب مثل هذا الطفل أمامها، وتصر على مناداتها جدتي وهي تعبث بخصلات الشيب في رأسها. أمازحها وأريها الشيب في شعري كيف تسلل إليّ، فصداقتنا تحمل الوفاء حقاً.

مات العم إبراهيم بعد عام من وفاة خالد. وبقى السيد خليل وحيداً يدير أمور مكتبتهما في السوق القديم، ويعمل على طباعة القليل من الكتب.

يمسك ابني خالد بيدي ملوّحاً بها ونحن متجهان إلى المكتبة. وجدت السيد خليل يحمل بعض الكتب من على الأرض. فلت خالد من يدي يركض نحوه، رمى خليل الكتب ولقفه يضمه إليه. «أهلاً بابن الغالي».

هذه المرة الأولى لزيارتي المكتبة بعد وفاة خالد. مددت إلى السيد خليل ظرفاً وجدته في مكتبة خالد منذ سنوات. قام بفتحه، ليخرج شيكاً بالملايين كتب خالد على ظهره: «الحياة لا تتطلب الكثير من العناء، كن فاسداً فقط، وستحقق كل ما حلمت به في طفولتك.»

استدار السيد خليل يقول لابني وهو يشير بسبابته إلى الحائط خلفه: «صورة مَن هذه؟»، ابتسم ابني، وقال: «أبي».

كتب السيد خليل بخطه الجميل على لوحة يضعها أسفل صورة خالد. «كم خالد في الحياة؟» قرأتها بصوت عال وقلت: «وهل ستشهد الحياة خالداً بعده؟»

انتهت